سلسلة رسائل ترشيد الصحوة (١)



دكتور يوسف القرضاوي

في عصر العلم

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الدين في عصر العلم

سلسلة رسائل في ترشيد الصحوة

(١)



دكتور يوسف القرضاوي

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومَن اتبع هداه .

أما بعد . .

فمنذ بضعة عشر عاماً نشرت مجلة « منار الإسلام » التى تصدر بدولة الإمارات العربية المتحدة ، بحثاً لى ، ظهر فى عدة مقالات ، تحت عنوان « الدين فى عصر العلم » ثم نشرته المجلة متكاملاً فى ملحق لها ، فى صورة رسالة مستقلة .

ولقد أخذتُ هذا البحث وجعلته الفصل الأول من كتابى « بيِّنات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغرِّبين » .

وذلك لأن هذا البحث يرد على شبهة رائجة يقول أصحابها : كيف تدعوننا إلى الحل الإسلامى ، وهو حل

يعتمد على الدين ، ويعتبره مرجعاً للمجتمع فى أُسسه التشريعية والأخلاقية والثقافية والاجتماعية ، فى عصر العلم والتكنولوچيا ، وقد انتهى عصر الدين ، وتقوَّضت خيامه ؟ وقد رأينا أن الغرب لم يتقدم وينطلق إلا بعد أن طلَّق الدين ، وتحرر من رِبقة رجاله وكهنوته ، واتجه إلى العلم والعقل ، يحتكم إليهما ، ويستضئ بنورهما ؟ فإذا كنا نريد أن ننهض كما نهض الغرب ، وأن نرقى كما رقى ، فلنصنع كما صنع ، ولنتحرر من الدين كما تحرر !

سنتبين فى هذا البحث : أن لا خصومة عندنا بين الدين والعلم ، وأن العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم ، وأن حضارتنا هى الحضارة التى جمعت بين العلم والإيمان ، وأن المنهج العلمى التجريبى الاستقرائى - الذى تفخر به الحضارة الغربية ، وقامت نهضتها وتقدمها على أساسه - إنما اقتبس من حضارتنا العربية الإسلامية ، كما شهد بذلك مؤرخو العلم ..

كما بيَّن هذا البحث أن دور الدين لم ينته ، ولن ينتهى ، لأنه فِطرة الإنسان التى فطره الله عليها ، وهو روح الحياة ، وجوهر الوجود . وحاجة الإنسان إلى الدين لا يمكن أن

تنتهى ، حاجة عقله وقلبه ، حاجة الفرد ، وحاجة المجتمع ، وأنه لا بديل عن الدين ، لا العلم ، ولا الفلسفة ، ولا الأيديولوچيا الوضعية ، ولا غيرها .

حتى الماركسية التى زعمت أن الدين أفيون الشعوب جعلت من نفسها ديناً ، وأعطت فلسفتها خصائص الدين .

كما رددنا على قانون الدورة الثلاثية ، الذى قال به الفيلسوف الوضعى الفرنسى الشهير « أوچست كومت » .

وبهذا كله يتضح لكل منصف أن الدين باق ما بقيت الحياة ، وأن له مهمته كما للعلم مهمته ، ولا سيما دين أول آية نزلت من كتابه : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . . والقراءة مفتاح العلم وسبيله .

وبالله التوفيق ، وعليه قصد السبيل .

القاهرة في ربيع الأول ١٤١٦ هـ - أغسطس (آب) ١٩٩٥م .

د . يوسف القرضاوى

* * *

الدين فى عصر العلم

ينفر بعض الناس من الحل الإسلامى لا لشىء إلا لأنه حل يعتمد على الدين ، ويستند إلى الوحى ، وهذا وحده كاف عندهم للإعراض عن هذا الحل ، فنحن فى عصر العلم ، لا فى عصر الدين ، فقد أدَّى الدين - فى رأيهم - دوره ، ولم يعد له فى الحياة الحديثة مكان !

وحُجَّة هؤلاء :

أولاً : أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم ، والدين يعادى العلم ، والغرب الحديث لم يبلغ ما بلغ من الرقى إلا حينما رفض منطق الدين ، وآمن بمنطق العلم .

فإذا أردنا أن نجارى الغرب فى مدنيته وحضارته فعلينا أن نسير سيره ، ونخلع رِبقة الدين من أعناقنا ، وإلا بقينا فى نطاق التخلف والانحطاط .

ثانياً : التسليم بما ذهب إليه فيلسوف المدرسة الوضعية

الفرنسية « أوجست كومت » من القول بقانون الأدوار الثلاثة التى بدأت بالدين ، وثنَّت بالفلسفة ، وانتهت بالعلم ، وهو غاية المطاف .

ثالثاً : ترديد ما قاله « ماركس » : أن الدين أفيون الشعب ، فيتعيَّن منعه ومقاومته حتى يتخلص الشعب من الخنوع والتسليم والإذعان ، وينهض للمطالبة بحقوقه ، ويثور على الأوضاع الظالمة الفاسدة .

* *

● الحضارة والعلم :

أما أن الحضارة لا قيام لها إلا بالعلم فهذا صحيح . وأما الربط بين قبول منطق العلم ورفض منطق الدين ، واعتقاد أن الدين يعادى العلم ، فهذا غير صحيح .

الدين الذى عادى العلم ووقف فى وجهه ، وحكم على رجاله بالموت أو بالحرمان من ملكوت السماء ، هو دين الكنيسة الغربية ، التى حجرت على الفكر ، وعارضت العلم ، وتبنت نظريات علمية قديمة أضفت

عليها القداسة والعصمة ، وحاربت كل مَن انتهى بحثه إلى مخالفتها ، ورمته بالزندقة والإلحاد .

هذا موقف دين الكنيسة ، ولا أقول دين المسيح .

* *

● موقف الإسلام من العلم :

أما الإسلام . . فهو دين قام منذ بزغ فجره على احترام العقل ، والدعوة إلى النظر والتفكر فى الأنفس والآفاق ، فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وخصوصاً أن الله سخَّر للإنسان ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، كما قام على رفض كل دعوى بغير برهان ، والإنكار على التبعية والتقليد ، وعلى اتباع الظنون والأهواء ، وتجريم السحر والكهانة والعرافة وما يلحق بها من الأباطيل . . وإلى جوار ذلك الإشادة بالعلم والعلماء ، وتفضيل درجة العلم على درجة العبادة ، والترحيب بكل علم نافع دينياً كان أو دنيوياً ، بل فرضه فرض كفاية على الأُمة بقدر ما يحتاج إليه المسلمون ، وأخذ الحكمة من أى وعاء خرجت ، وبهذه المبادئ

والتوجيهات الرائدة ، صنع الإسلام « المناخ » النفسى والاجتماعى لازدهار العلم ، وقيام حياة علمية مضيئة الجنبات .

و« العقلانية » فى الإسلام أمر اعترف به كل منصف ، ولو كان من خصوم الإسلام أنفسهم .

فهذا الكاتب الماركسى « مكسيم رودنسون » يقول فى حديثه عن « العقيدة القرآنية » (١) : « القرآن كتاب مقدَّس تحتل فيه العقلانية مكاناً جد كبير . فالله لا ينفك فيه يناقش ويقيم البراهين ، بل إن أكثر ما يلفت النظر هو : أن الوحى نفسه - هذه الظاهرة الأقل اتساماً بالعقلانية فى أى دين ، الوحى الذى أنزله الله على مختلف الرسل عبر العصور ، وعلى خاتمهم محمد - يعتبره القرآن هو نفسه أداة للبرهان ، فهو فى مناسبات عديدة ، يكرر لنا أن الرسل قد جاءوا بـ « البيِّنات » . . . وهو لا يألو يتحدى معارضيه أن يأتوا بوحى مثله . . .

« والقرآن ما ينفك يقدِّم البراهين العقلانية على القدرة الإلهية : ففى خلق السموات والأرض ، واختلاف اللَّيل

(١) ص ١٣٤ وما بعدها من كتابه « الإسلام والرأسمالية » ترجمه نزيه الحكيم ، نشر دار الطليعة .

والنهار ، وتوالد الحيوان ، ودوران الكواكب والأفلاك ، وتنوع خيرات الحياة الحيوانية والنباتية ، تنوعاً رائع التطابق مع حاجات البَشر : ﴿ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ ﴾ [(١)] ، [(٢)] .

« وفعل « عَقَل » (بمعنى : رَبَط الأفكار بعضها ببعض .. حاكَم .. فَهِم البرهان العقلى) يتكرر فى القرآن حوالى خمسين مرة ، ويتكرر ثلاث عشرة مرة هذا السؤال الاستنكارى ، وكأنه لازمة : ﴿ أفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟! والكفار أُولئك الذين يرفضون الاستماع إلى دعوة محمد ، يوصفون بأنهم : ﴿ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأنهم قاصرون عن أى جهد عقلى يهز تقاليدهم الموروثة ، وهم بهذا كالعجماوات والأنعام ، بل أكثر عجمة ... ولذلك يكره الله هؤلاء الناس الذين لا يريدون أن يعيدوا النظر فى أُسس تفكيرهم .

---

(١) كان الأولى الاستشهاد بآية البقرة رقم (١٦٤) فهى المطابقة لكلام المؤلف هنا ، ويبدو من كلام المؤلف : أنه تتبع مادة « عقل » فقط فى القرآن ، ولو تتبع كلمات أخرى فى الموضوع مثل : « نظر » ، و« تفكر » ، و« فقه » ، و« علم » ، و« برهان » ، و« لب » ونحوها لخرج بشىء كثير وكثير جداً .

(٢) آل عمران : ١٩٠

« ولئن كان (يعنى الله سبحانه) يرسل الآيات « الدالة » على وجوده وإرادته ، وأهمها الآيات المنزَّلة على نبيه محمد ، فلكي يفهمها الناس ، ويجعلوا منها أساساً لتفكيرهم ، ونرى الله يقدِّم البيِّنة الفاصلة ، ثم يختتم البرهان بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ويستمر الكاتب فى بيان عقلانية الإسلام مقارناً هذه بما جاء فى العهدين القديم والجديد ، لليهود والمسيحيين ، إلى أن يقول : « فى مقابلة هذا تبدو « العقلانية القرآنية » صلبة كأنها الصخر » (٢) .

ومثل هذا المناخ العقلى الذى صنعته آيات القرآن - كما اعترف به المفكر الماركسى وغيره - يشكل أخصب بيئة لإنتاج علمى مثمر ، قائم على استخدام أقصى الطاقات والمواهب البَشرية .

---

(١) الروم : ٢٨

(٢) انظر فصل « العقيدة القرآنية » من كتاب « الإسلام والرأسمالية »

ولكنَّا نضيف إلى ما ذكر أُموراً مهمة فى موقف الإسلام من العلم ، منها :

١ - إشارة القرآن إلى استخدام « التخطيط » فى السياسة الاقتصادية والتموينية للدولة ، كما هو واضح فى « الخطة الخمس عشرية » من قصة يوسف الصِّدِّيق - عليه السلام - فى القرآن الكريم - وكيف كانت هذه الخطة الحكيمة سبباً فى إنقاذ مصر وما حولها من الأقطار من مجاعة مهلكة . فليس التخطيط - إذن - منافياً لعقيدة الإيمان بالقَدَر ، كما يفهم بعض السطحيين (١) .

٢ - استخدام النبى ﷺ لأسلوب « الإحصاء » منذ عهد مبكر من حياة المسلمين فى المدينة ، فقد روى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة ، أمر بعض أصحابه أن يحصوا له عدد الذين يلفظون بالإسلام . فأحصوهم ، فكان عددهم خمسمائه وألفاً (٢) .

وبهذا نعلم أن « الإحصاء » أسلوب إسلامى أصيل ، وليس سلعة مستوردة من الغرب .

---

(١) انظر « الإسلام والمنهج العلمى » للدكتور عبد العزيز كامل .

(٢) رواه البخارى فى كتاب « الجهاد » من صحيحه .

٣ - إقراره صلوات الله وسلامه عليه لمبدأ التجربة فى الأُمور الدنيوية ، والأخذ بنتائجها وإن كانت مخالفة لرأيه صلى الله عليه وسلم ، كما وقع ذلك فى حادثة تأبير النخل وقوله لهم فى ذلك : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » (١) .

٤ - تشجيع الاقتباس وأخذ النافع من الغير ، فى الأمور « التقنية » والدنيوية ، التى لا تتعلق بالعقائد والقِيَم والآداب والشرائع ونحوها ، مما تتمايز به المجتمعات « الأيديولوچية » بعضها عن بعض . ولهذا أخذ الرسول ﷺ برأى سلمان فى حفر الخندق حول المدينة ، مع أنه من أساليب الفُرس . وصنع له نجار رومى منبراً يخطب عليه . وقد روى عنه قوله عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أحق بها » (٢) .

٥ - إشادة القرآن الكريم بقيمة الصناعة ودورها فى

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه فى سننهما . وسنده ضعيف ، ولكن معناه صحيح .

الحياة ، حتى إن رُسُل الله والمصطفين الأخيار من عباده كانوا أصحاب حِرَف وصناعات أتقنوها وتفوقوا فيها . فنوح شيخ المرسلين يصنع السفن ، وإبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل بَنَّاءان يرفعان القواعد من البيت (الكعبة) ، وداود يصنع الدروع ويلين له الحديد . . وسليمان يسيل الله له عَيْن القَطْر ، ويُسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، وذو القرنين يقيم السدَّ العظيم من الحديد والنحاس المذاب (١) .

وهذا كله يبيِّن لنا طبيعة « المناخ » الذى هيأه الإسلام لظهور « المنهج العلمى » السليم ، الذى لم يملك باحثو الغرب أن ينكروه .

يقول العلَّامة « رينيه ميليه » : لقد جاء المسلمون بمبدأ فى البحث جديد ؛ مبدأ يتفرَّع من الدين نفسه ، هو مبدأ التأمل والبحث ، وقد مالوا إلى العلوم وبرعوا فيها ،

---

(١) انظر فى تفصيل ذلك : فصل « الرسول والعلم التجريبى » من كتابنا : « الرسول والعلم » نشر مؤسسة الرسالة ، ودار الصحوة .

ـهم الذين وضعوا أساس علم الكيمياء ، وقد وُجِدَ فيهم
ـبار الأطباء » .

ويقول الدكتور « فرنتو رونثال » : « إن أعظم نشاط
ـكرى قام به العرب يبدو لنا جلياً فى حقل المعرفة التجريبية ،
ـضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون
ـشاطاً واجتهاداً عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون ،
ـحين يجمعون ويرتبون ما تعلَّموه من التجربة » .

ويقول المؤرخ الفيلسوف الاجتماعى الشهير « چوستاف
ـوبون » : « إن العرب هم الذين عَلَّموا العالَم كيف تتفق
حرية الفكر مع استقامة الدين » .

* *

● أثر العلم الإسلامى فى الحضارة :

ولا عجب أن قامت فى هذا المناخ حضارة سامقة الذرا ،
جمعت بين العلم والإيمان ، ومزجت بين الدين والدنيا ،
حتى إن أوروبا لم تُقِم نهضتها العلمية إلا حين مسَّها قبس
من نور هذه الحضارة ، أخرجها من سجن التقليد

والدوران حول القديم ، من القياس الأرسطى ، والمنطق الصورى ، إلى باحة الكشف والاستقراء والملاحظة والتجربة ، وكل ذلك من أثر المنهج العلمى الإسلامى الذى اكتشفه المسلمون متأثرين بالإسلام قبل أى شىء آخر .

يقول المؤرخ والفيلسوف الاجتماعى الفرنسى الدكتور « چوستاف لوبون » فى فصل له عن « مناهج العرب العلمية » من كتابه « حضارة العرب » :

« ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدرس والبحث ، وتكون قيمتها فى معرفة الاستفادة منها ، وقد يستطيع المرء أن يكون مطَّلِعاً على علوم الآخرين ، وقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أى شىء مع ذلك ، فيظل تلميذاً غير قادر على الارتقاء إلى درجة أستاذ ، وسيبدو من الاكتشافات التى نذكرها فى الفصول الآتية ، مقدار ما اكتشفه العرب بما لديهم من وسائل الدرس . . والآن أقتصر على ذكر المبادئ الأربعة التى وجَّهت أبحاثهم :

لم يلبث العرب بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل

الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جَدَّ علماء القرون الوسطى فى أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها .

ويُعْزَى إلى « پيكون » على العموم أنه أول مَن أقام التجربة والترصد اللَّذين هما ركن المناهج العلمية الحديثة مقام الأستاذ ، ولكن يجب أن نعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم .. وقد أبدى هذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا مؤلَّفات العرب ، ولا سيما « هَنبولْد » ، فبعد أن ذكر هذا العالِم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو أرفع درجة فى العلوم قال : « إن العرب ارتقوا فى علومهم إلى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريباً » .

وقال « مسيو سيديُّو » : « إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد فى البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة لأعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق فى الحوادث تدقيقاً مؤدياً إلى استنباط العلل من المعلولات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير تجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب ، وكان العرب فى القرن التاسع من

الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجدى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات » .

قام منهاج العرب على التجربة والرصد ، وسارت أوروبا فى القرون الوسطى على درس الكتب والاقتصار على تكرار رأى المعلم ، والفرق بين المنهجين أساسى ، ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بتحقيق هذا الفرق .

واختبر العرب الأُمور وجرَّبوها ، وكانوا أول مَن أدرك أهمية هذا المنهاج فى العالَم ، وظلوا عاملين به وحدهم زمناً طويلاً ، قال « دولَنْبِر » فى كتاب « تاريخ علم الفلك » : « تَعدَّ راصدين أو ثلاثة بين الأغارقة ، وتَعدَّ عدداً كبيراً من الرُصَّاد بين العرب ، وأما فى الكيمياء فلا تجد مجرِّباً يونانياً مع أن المجرِّبين من العرب فيها يُعَدّون بالمئات » .

ومنح اعتماد العرب على التجربة مؤلَّفاتهم دقة وإبداعاً لا يُنتظر مثلهما من رجل تعوَّد درس الحوادث فى الكتب ، ولم يبتعد العرب عن الإبداع إلا فى الفلسفة التى كان يتعذَّر قيامها على التجربة .

ونشأ عن منهاج العرب التجريبى وصولهم إلى اكتشافات مهمة ، وسنرى من مباحثنا فى أعمال العرب العلمية أنهم أنجزوا فى ثلاثة قرون أو أربعة قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الأغارقة فى زمن أطول من ذلك كثيراً ، وكان تراث اليونان العلمى قد انتقل إلى البيزنطيين الذين عادوا لا يستفيدون منه منذ زمن طويل ، ولما آل إلى العرب حوَّلوه إلى غير ما كان عليه ، فتلقاه ورثتهم مخلوقاً خلقاً آخر .

ولم يقتصر شأن العرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه ، فالعرب قد نشروها كذلك بما أقاموا من الجامعات وما ألَّفوا من الكتب ، فكان لهم الأثر البالغ فى أوروبا من هذه الناحية ، وسترى فى الفصل الذى ندرس فيه هذا التأثير ، أن العرب وحدهم كانوا أساتذة الأُمم النصرانية لمدة قرون ، وأننا لم نطلّع على علوم قدماء اليونان والرومان إلا بفضل العرب ، وأن التعليم فى جامعاتنا لم يستغن عما نُقل إلى لغاتنا من مؤلَّفات العرب إلا فى الأزمنة الحاضرة » [1] .

---

(١) حضارة العرب ص ٤٢٣ – ٤٣٧ ، الطبعة الأولى .

ومما لا ينازع فيه أحد أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم اهتمام كبير بالجانب العلمى ، لغلبة الجانب الأدبى والاهتمام بفنون القول عليهم .

فهذا الاتجاه العلمى الذى نوَّه به مؤرخو الحضارة الإسلامية العربية ، إنما هو من صنع الإسلام ، الذى حثَّهم على البحث والتأمل فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، وهيأ - قبل ذلك - المناخ النفسى والعقلى الذى ازدهر فيه العلم هذا الازدهار [1] .

فإذا كان مؤرخو العلم الأوروبيون قد أنكروا فضل العرب الفلسفى ، فإنهم لم يستطيعوا إنكار فضلهم العلمى ، وإن كان الكثيرون منهم يعترفون به على أساس أنه نتيجة لعلوم اليونان . وليس هنا مجال مناقشة هؤلاء .

---

(١) انظر : فصل « الرسول والعلم التجريبى » من كتابنا « الرسول والعلم » ص ٣٧ - ٦٠ ، طبع مؤسسة الرسالة - بيروت ، ودار الصحوة - القاهرة .

ونحن نعلم أن أفكار « الحسن بن الهيثم » فى علم « البصريات » عاشت فى أوروبا إلى زمان ليس ببعيد عنا ، كما نعلم أن أبحاث « الطوسى » فى « الرياضيات » وتناوله لهندسة « إقليدس » ومعادلاته ، بقيت زمناً طويلاً يتناولها علماء أوروبا ، وكذلك كتاب « ابن سينا » - الطبى - « القانون » بقى المرجع الأساسى لكليات الطب فى أوروبا حتى القرن السابع عشر .

وما زالت عناية الباحثين بالعلم العربى الإسلامى قائمة على أشدها ، مهتمين ببيان مكانته فى التراث العلمى العالمى ، ومن وجَّه الأنظار إلى قيمة هذا العلم ، مؤرخ تاريخ العلم الإنسانى ، الأستاذ « چورچ سارتون » .

وقد لفت الأستاذ الدكتور على سامى النشار الأنظار إلى أعمال هذا الباحث الكبير ، وعلى الأخص فى كتابه الممتاز « تاريخ العلم » .

فقد عرض فى مواضع متعددة من هذا الكتاب لأهمية

العلم العربى - الإسلامى - فى العصور الوسطى . .
وقرر : أن أعظم النتائج العلمية لمدة أربعة قرون إنما كانت صادرة عن العبقرية الإسلامية .

كما بيَّن أيضاً : أن معظم الأبحاث العلمية الممتازة - خلال هذه القرون الأربعة - إنما تمت فى لغة العلم الكبرى حينئذ وهى اللُّغة العربية [1] .

ويذكر الدكتور النشار فى كتابه القيم « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمى فى العالَم الإسلامى » نتيجتين هامتين لبحثه كله :

الأولى : أن المفكرين المسلمين الحقيقيين ، الممثلين لروح الإسلام ، لم يقبلوا المنطق الأرسطى الصورى ، لأنه يقوم

---

(١) انظر كتاب « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام واكتشاف المنهج العلمى فى العالَم الإسلام » للدكتور على سامى النشار ص ٣٥٣ - ٣٥٩ ، كما نبّه الدكتور النشار على كتاب لسارتون هو « العلم القديم والمدنية الحديثة » ترجمة الدكتور عبد الحميد صبرة ص ٧٨ ، ٧٩ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ومواضع أخرى متعددة .

على المنهج القياسى ، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائى أو التجريبى .

والنتيجة الثانية : أن المسلمين قد وضعوا هذا المنهج العلمى بجميع عناصره ، وكانت أسبانيا هى المعبر الذى انتقل خلاله من العالَم الإسلامى إلى أوروبا [(١)] .

وينقل مفكر الهند الكبير المرحوم الدكتور محمد إقبال عن « دوهرنج » قوله : « إن آراء « روجر پيكون » عن العلم أصدق وأوضح من آراء سَلَفه . ومن أين استمد « روجر پيكون » دراسته العلمية ؟ .. من الجامعات الإسلامية فى الأندلس » .

ويقرر الأستاذ « بريفولت » فى كتابه « بناء الإنسانية » : أن « روجر پيكون » درس العلم العربى دراسة عميقة - وأنه لا يُنسب له ولا لسميه الآخر « فرنسيس پيكون » أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبى فى أوروبا . ولم

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٢

يكن « روجر بيكون » فى الحقيقة إلا واحداً من رُسُل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوروبا المسيحية .

ولم يكفّ « روجر بيكون » عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه .

ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوروبى لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسى عليها . ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية فى العلم الأوروبى هو تأثيرها فى « العلم الطبيعى » و« الروح العلمى » ؛ وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث ، والمصدران الساميان لازدهاره .

ويقرر « بريفولت » فى حسم وإصرار :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدَّموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة . إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا . إنه يدين لها بوجوده . . .

« إن ما ندعوه بالعلم ظهر فى أوروبا نتيجة لروح جديدة

فى البحث ، ولطرق جديدة فى الاستقصاء .. طرق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات فى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح ، وتلك المناهج إنما أدخلها العرب إلى العالَم الأوروبى » [1] .

* *

• الإسلام يوحِّد بين الدين والعلم :

وبهذا يتضح لنا أن لا مجال فى الإسلام لدعوى التعارض أو العداوة بين الدين والعلم ، فالدين فى الإسلام علم ، والعلم فيه دين . كما تشهد بذلك أُصول الإسلام وتاريخه جميعاً . فالدين فى الإسلام علم ، لأنه لا يعتمد على الوجدان وحده ، بل يقوم على النظر والتفكير ورفض التقليد الأعمى ، والاعتماد على البرهان اليقينى لا على الظن واتباع الهوى .

والعلم فى الإسلام دين ، لأن طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وهو فريضة عينية أو كفائية ، تبعاً لحاجة

---

(١) « مناهج البحث عند مفكرى الإسلام » ص ٣٨٢ ، ٣٨٤

الفرد أو حاجة المجتمع . والاشتغال بالعلم النافع - دينياً كان أم دنيوياً - عبادة وجهاد فى سبيل الله . وهذه حقيقة شهدها وشهد بها كثير من الباحثين والمؤرخين الغربيين . ولا بأس أن نذكر هنا بعض هذه الشهادات تأكيداً وتثبيتاً لمن تهمهم أقوال الغربيين .

يقول العلامة « هورتن » : « فى الإسلام وحده تجد اتحاد الدين والعلم . فهو الدين الوحيد الذى يوحِّد بينهما . فتجد فيه الدين ماثلاً متمكناً فى دائرة العلم . وترى وجهة الفلسفة ووجهة العلم متعانقتين ، فما واحدة لا اثنتان » .

ويقول « إتيان دينيه » : « إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة فى سبيل الفكر ، فقد يكون المرء صحيح الإسلام ، وفى الوقت نفسه حر الفكر ، ولا تقتضى حرية الفكر أن يكون المرء منكراً لله . لقد رفع « محمد » قَدْر العلم إلى أعظم الدرجات ، وجعله من أول واجبات المسلم . ويقول : « يوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدماء

الشهداء » [1] ، ورفع فضل العلم على فضل العبادة » [2] .

* *

● مشكلة التعارض بين الدين والعلم وأين نشأت ؟

وإذا كان هذا موقف الإسلام من العلم ، فمن أين نشأت مشكلة التعارض بين العلم والدين ؟

الحقيقة كما يقول الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود [3] :

---

(١) حديث ذكره الغزالى فى كتاب « العلم » من « الإحياء » وقال الحافظ العراقى فى تخريجه : أخرجه ابن عبد البر من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف .

(٢) كحديث : « فضل العالِم على العابد كفضلى على أدنى رجل من أصحابى » ، رواه الترمذى من حديث أبى أمامة وقال : حسن صحيح .

(٣) من بحث عن « شخصية المسلم » ألقاه فى المؤتمر الرابع لـ « مجمع البحوث الإسلامية » .

« إن مشكلة التعارض بين الدين والعلم ، إنما نشأت فى أوروبا بعيدة عن الجو الإسلامى ، إنها تصورٌ نزاعاً فى بيئة بعيدة كل البُعد عن الروح الإسلامية ، التى حثَّت الإنسانية على التعليم والتعلم ، والتى نشأ المنهج العلمى - الذى يعتبرونه حديثاً - بين ربوعها ، قديماً بقدمها ، والتى أنشأت على أساس من هذا المنهج حضارة ضخمة ، لا تزال تكشف كل يوم الكثير من أنحائها العميقة .

« وما من شك فى أن الحضارة الإسلامية هى - كما يقول الأستاذ « بريفولت » - التى قدَّمت إلى الحضارة الغربية الحديثة المنهج العلمى وأُصول العلم نفسه ، أى الحقائق المكتشفة فى المجالات المختلفة .

« والأمر العام الذى نريد أن ننبه عليه ، هو : أن مسألة التعارض بين الدين والعلم ، إنما هى مسألة وهمية إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر .

« ذلك أن العلم وممثليه الحقيقيين : يعترفون فى صراحة لا لَبْس فيها ، وفى وضوح لا خفاء فيه : بأن دائرة أبحاثهم ، إنما هى المادة ، وإنما هى المحسَّ ، وأنهم يعتمدون فى ذلك

على التجربة ، وعلى الملاحظة ، إنهم يعتمدون على الاستقراء على وجه العموم ، وليس الاستقراء إلا تتبع جزئيات مُحسَّة ، تتبعها بالملاحظة ، أو بإجراء التجارب عليها . والمنهج العلمى إذن : إنما هو منهج لمعرفة كيفيات المادة ، وإذا ما خرج الأمر عن دائرة المادة ، فقد خرج عن دائرة العلم .

« وعلى هذا الأساس : فليس للعلم مطلقاً دخل فى أُمور الدين - إثباتاً وإقراراً ، أو نفياً وإنكاراً ، وإذا ما قال قائل : إن العلم يثبت كذا من الأُمور الروحية ، فإنه يكفينا منه هذه الكلمة ، لنسحب ثقتنا به كعالِم ، وإذا ما قال : إن العلم ينكر كذا من الأُمور الروحية ، فإن هذه الكلمة تكفى أيضاً لسحب ثقتنا به كعالِم ، إذ أن العلم فى المجال الروحى ، لا يثبت ولا ينفى ، وهذا واضح مما سبق أن ذكرناه .

« ومع ذلك فقد يتيح العلم بأبحاثه فى ارتباط الكون وتنسيقه وإبداعه ، والتناغم الذى يسوده ، والدقائق الباهرة التى يبينها « علم التشريح » - مثلاً - فى التركيب الحيوانى

قد يتيح العلم من كل ذلك لعلماء الدين مواد يبنون عليها تذكيرهم وعظاتهم ، وبيانهم : أن العالَم لم يكن نتيجة الصدفة العمياء أو الاتفاق الأصم ، يبينون من نتائج العلم أن الآيات فى مجال المادة نفسها تشهد أنها من صنع الله الذى أتقن كل شىء : « ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ » (١) .

* *

• العلوم لا تعارض الدين بل تخدمه من جهتين :

ويزيد أستاذنا المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز هذا الأمر إيضاحاً حين يتحدث عن مراتب العلوم من حيث مقوِّمات موضوعاتها ، فيبيِّن أن لا اشتراك بين الدين والعلم فى موضوع ما ، ولهذا لا يعقل التعارض بينهما . وإنما يُتصور التفاهم وحُسْن الجوار على الأقل ، إن لم يكن التعاون والتضامن .

يقول - رحمه الله - فى كتابه القيم « الدين » : « ولو أننا أخذنا فى تصنيف موضوعات العلوم ، لا باعتبار شرف

---

(١) فصلت : ٥٣

غايتها المباشرة ؛ بل بحسب مقوِّماتها النوعية ، وتكامل عناصرها بالازدياد التدريجى ، لحصلنا بينها على هذا الترتيب التصاعدى نفسه ، إذ نرى كل واحد منها يحتوى ما قبله ويزيد عليه عنصراً جديداً : فالحياة النباتية تستلزم وجود الجسم بأجزائه ، وجزئياته ، وعناصره ، وذَرَّاته ، وطاقاته ، وتزيد عليه وظائف أخرى . والحياة الحيوانية تحتوى الحياة النباتية بجميع وظائفها ، وتزيد عليها . والحياة الإنسانية فيها كل الحياة الحيوانية ، وتزيد وظائف أعلى . وهذه الوظائف نفسها طبقات بعضها فوق بعض ، وأعلاها الوظيفة الروحية التى تتطلع إلى الحقيقة الكبرى .

« هذا البيان يرينا على أى وجه يمكن أن نفهم الصلة بين العلم الإلهى (علم الدين) وسائر العلوم (طبيعية ، أو رياضية ، أو فلكية ، أو نفسية ، أو اقتصادية ، أو منطقية ، أو اجتماعية ، أو تاريخية ، أو لُغوية ، أو غيرها) ، وأنها ليست صلة وحدة فى الموضوع ، ولا اشتراك فى الأهداف ، إذ مهما تعالج هذه العلوم من مشاكل ، فليس واحد منها يتصدَّى لعلاج المشكلة الكبرى التى انتهض الدين

لحلها . إنها كلها تبحث عن الكائنات ، وليس شيء منها يبحث عن مبدئها الأول وغايتها القصوى . غير أنها كلها تستطيع أن تزجى لهذا المطلب خدمة ما . من قريب أو بعيد ، ولن يستغنى الدين عن العلوم إلا لو استغنت المقاصد عن وسائلها ومقدماتها ، أو الدعاوى عن حججها وبيِّناتها ، فكما أن المجهول لا يُتوصل إليه إلا عن طريق المعلوم ، والغائب لا يُدرك إلا على ضرب من القياس على الشاهد ، كذلك الحقائق العليا لا يسهل الصعود إليها إلا على سلم من حقائق الدنيا .

« فإن بعدت صلة بعض العلوم بالدين ، وعجزت عن أن تقدِّم له مَدَداً إيجابياً ملموساً ، فإنها - بما تبدِّد من ظلمات الأوهام . وبما تبعث من النور فى جوانب النفس - تقوم بوظيفة تطهير وتنقية ، لا بد منها لتهيئة جو عقلى صالح لاعتناق العقائد السليمة ، حتى إذا ركن القلب إلى شيء كان ركونه إليه على بصيرة وبيِّنة ، لا مدفوعاً بحمية الجهل ، ولا منقاداً بسذاجة المحاكاة : ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (1) .

---

(1) الزمر : ٩

« ومهما يكن من أمر ؛ فالمعقول أنه إن لم يكن بين العلم والدين تعاون من قريب ولا بعيد ، كان بينهما على الأقل من التفاهم وحُسْن التجاور ما بين فروع الصناعات المختلفة ، إذ ليس يُعقل أن يكون هناك تعارض وتناقض بين أمرين لا اشتراك بينهما فى موضوع واحد .

* *

● تفسير المصادمات التى وقعت بين العلم والدين :

« وهنا يحق لنا السؤال عن تفسير تلك المصادمات العنيفة ، التى ظهرت فى التاريخ غير مرة ، بين العلوم والأديان . لا نعنى ذلك الصراع الصورى الذى يُسْتَغل فيه اسم العلم أو الدين أحياناً ، ليكون ستاراً للمقاصد الخفية ، والمطامح المختلفة ، من الثروة ، والنفوذ ، والجاه ، وسائر المصالح العاجلة ، كما لا نعنى الصراع الحقيقى الدائم بين النزعات الروحية السامية ، التى تدفع إلى التضحية وضبط النفس والاعتدال ، وبين النزعات المادية المضادة التى تهدف إلى الفوضى والإباحة والاستئثار . وإنما نطلب تفسير تلك المعارضة الفكرية التى تقع بحُسْن نية بين

المعسكرين العلمي والديني ، فيقف كل واحد منهما موقف التكذيب والإنكار لما عند الآخر .

« والجواب أن هذه المعارضة تحدث - فيما نعلم - على إحدى صورتين :

« الصورة الأولى : أن يقف أحد الطرفين موقف المعارضة لما عند الآخر جملة ، لا بناء على حُجَّة تدحضه ، أو شُبهة تضعفه ، بل عفواً واعتباطاً ، أو لمجرد جهله به ، ظناً منه أن كل ما لم يدخل فى دائرة علمه فى الحال فليست له حقيقة . وهذا لعمرى من قصر النظر ، بل من الجهل والغرور ، فإن التكذيب بما لم يحط الإنسان بعلمه ولم يأته تأويله ، خطأ لا يرتكبه الراسخون فى العلم والدين ، وإنما يقع فيه المغرورون من العامة أو « أنصاف المتعلمين » ، وهؤلاء أشد خطراً من الجهلاء ، لأن علمهم فى الحقيقة جهل مركَّب ، وإنما الإنصاف أن يكون كل امرىءٍ عارفاً بقدر نفسه ، واقفاً عند حده ، بنَّاءً غير هدَّام .

والسبيل القاصد فى ذلك أن يثبت كل فريق ما وصل إليه ، ولا ينكر ما لم يصل إليه .

« وقد رأينا العلماء المتخصصين فى فرع من العلوم الطبيعية أو العقلية يعتمدون النتائج التى وصل إليها المتخصصون فى فرع آخر منها - كل فى نطاق تخصصه - ولا ينتظرون أن يعيدوا كلهم ما جرَّبه أو برهنه بعضهم ، وهذا هو الوضع السليم الذى تتقدم به المعارف الإنسانية ، إذ لو وجب أن يعيد كل عالِم بحث كل مسألة بنفسه ، لما تقدَّمت العلوم خطوة واحدة .

« وكذلك ينبغى أن يكون الشأن بين حَمَلة العلوم وحَمَلة الأديان . .

« ألم يُجْمِع العلماء الآن على إمكان تحطيم النواة الذَرِّية ، واستخدام طاقتها الجبَّارة فى صنع الأعاجيب ، مع أنه لم يباشر هذه التجربة منهم إلا نفر قليل ؟ فماذا يمنعنا أن نؤمن بالتجارب الروحية المتكررة التى شهدها الأنبياء وأرباب البصائر النيِّرة فى مختلف العصور ، وإن لم يشهد الناس منها إلا نتائجها الخارقة ؟

« إنه إذا كان من واجب الأديان أن تهادن العلوم ولا تنابذها ، وكان من الخير لها أن تستثمر كافة المعارف البَشرية وتتسلح بنتائجها ، فإن من الخير للعلوم كذلك أن تدع الأديان تكمل ما فيها من نقص ، وتملأ ما تتركه فى النفوس من فراغ ، بما يملؤه من الحقائق الروحية ، فإن لم تفعل فلا أقل من أن تلتزم شقة حياد ، فلا تعادى الأديان ولا تنكرها جملة ، فإن إنكار الدين جملة إنكار ضمنى لأمور واقعية ، تحتويها الأديان كلها ، ولا يحتويها علم من العلوم ، ألا وهى عناصر الإيمان بالحقيقة العليا وتقديسها وعبادتها . . معان هى من مادة الحياة التى قد يفسِّرها العلم ، ولكنه لا يخلقها ، وقد ينقب عن أطوارها ويتفهم نشأتها ، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل وجودها ، أو يدَّعى لنفسه أنه يحل محلها » .

« الصورة الثانية : أن تكون هناك مسألة أو مسائل معيَّنة تنطق فيها العلوم والأديان بحكمين متناقضين . وإنما يحدث ذلك حينما تتناول الأديان إلى جانب عنصرها الروحى شيئاً من موضوعات العلوم وحقائق المشاهدات ، وتذهب فى

ذلك مذهباً معيَّناً ، تفرضه على المتدينين بها فرضاً . فهذا الجانب وإن كان عَرَضياً فى الأديان ، وكان سبيله فى الغالب سبيل الوسائل لا المقاصد ، إلا أنه يُعَد معياراً لمقدار ما فى كل دين من صحة أو فساد ، على قدر اتفاقه مع مقررات العلم الصحيح وقضايا العقل السليم ، أو اختلافه معها ، فإنه إذا كان الدين حقاً ، والعلم حقاً ، وجب أن يتصادقا ويتناصرا . أما إذا تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما لا محالة يكون باطلاً وضلالاً » [1] .

ومصداق ذلك أن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى عندهم تبنَّت نظريات وآراء معيَّنة فى الفلك والفيزياء والجغرافيا وغيرها من العلوم ، وأضفت على هذه الآراء لوناً من القداسة الدينية ، وأصبحت جزءاً من معتقداتها ، التى يشب عليها الصغير ويهرم عليها الكبير . . فلما بزغ فجر النهضة العلمية فى أوروبا ، على أيدى جماعة من علمائهم ومفكريهم الأحرار - الذين تأثروا بالمنهج العلمى

---

(١) « الدين » للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٧٤ - ٧٨

الذى كان معروفاً فى العالَم الإسلامى - اصطدمت أفكارهم ومكتشفاتهم اصطداماً مباشراً بتلك النظريات المقدَّسة . وكان النزاع المرير المعروف فى الغرب بين العلم والدين (١) .

* *

● دور الدين لم ينته ولن ينتهى :

بقى ما يقال من أن الدين قد انتهى دوره ، وأخلى مكانه للعلم الحديث : ما مدى صحة هذا الزعم ؟ وهل يمثل حقيقة علمية أو منطقية أو واقعية ؟

والذى نجيب به مطمئنين كل الاطمئنان : أن هذا الزعم غير صحيح على الإطلاق ، فالدين ليس شيئاً طارئاً على الإنسان ، ولا امرأ على هامش الحياة ، بحيث يُستطاع اطراحه والاستغناء عنه فى عصر من الأعصار .

* * *

---

(١) انظر فى ذلك كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » للأستاذ الإمام محمد عبده .

مناقشة نظرية « أوچست كومت »

ولقد جاء زمن راجت فيه لدى بعض الناس نظرية « الأدوار الثلاثة » التى ذهب إليها الفيلسوف الفرنسى « أوچست كومت » - مؤسس المدرسة الوضعية التقليدية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) - وتتلخص فى أن العقل الإنسانى قد مَرَّ بمراحل أو أدوار ثلاثة ، هى : الدور اللاهوتى أو الدينى ، والدور الميتافيزيقى أو التجريدى ، والدور الواقعى أو الوضعى - وهو الدور العلمى - وهذا هو ما يسمى « قانون الدَوْرة الثلاثية » .

فى الدور الأول كان العقل يبحث فى كُنْه الموجودات وأصلها ومصيرها . . معتمداً على الخيال . . فالظواهر تحدث بفعل كائنات غير منظورة تختفى وراء الطبيعة المنظورة ، كالآلهة والشياطين .

وفى الدور الميتافيزيقى ارتقى العقل ، فتخلَّى عن الكائنات غير المرئية ، ليردّ الظواهر إلى علل مجرَّدة خفية ، يتوهمها فى باطن الأشياء ، وهى معان مجرَّدة ، وبذلك أحل « المجرَّد » محل « المشخَّص » ، ووضع الاستدلال

موضع الخيال . أما الملاحظة والمشاهدة فتحتل فيه مكاناً ثانوياً .

وفى الدور الثالث - الواقعى - يتجنب العقل البحث عن أصل الكون ومصيره ، وعلله الخفية رأساً ، ولا يهتم إلا بمعرفة الظواهر واكتشاف قوانينها ، والعلاقات المطردة بينها ، ويقيمها على أساس من الملاحظة والتجربة ، لا من الخيال ، ولا من الاستدلال . وبهذا يهتم العلم بالإجابة عن السؤال : كيف حدث الشىء ؟ وليس عن السؤال : لماذا حدث ؟ [1] .

وعلى هذا يكون طَوْر التفكير الدينى .. يمثل - فى نظر كومت - مرحلة الطفولة للعقلية الإنسانية .. على حين يمثل طَوْر الفلسفة الميتافيزيقية مرحلة المراهقة ..

أما طَوْر العلم التجريبى فيمثل مرحلة الكهولة والرشد ، إذ ما عدا قضايا العلم الواقعى الحِسِّى لا يعدو أن يكون خيالاً أو كلاماً فى كلام .

---

(١) انظر : أُسس الفلسفة ، للدكتور توفيق الطويل ص ١٩٤ ، ١٩٥ - الطبعة الثالثة .

ويعبِّر عن ذلك فيلسوف ألمانى تأثر بـ « كومت » وهو « لودفيج فويرباخ » (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فيقول :

« الله كان فكرتى الأُولى .. والعقل كان فكرتى الثانية .. والإنسان - بمحيطه الواقعى - هو فكرتى الثالثة والأخيرة » [١] .

هذه هى النظرية التى لا زال بعض الكاتبين فى ديارنا يرددونها ، ويتشبثون بها ، معلنين - فى تعالم وغرور - أنّ عهد « الغيبيات » قد طويت أعلامه ، بعد أن قامت دولة العلم ، وسقطت كل قضية لا يمكن اختبارها فى المعمل ! هذا مع أن المفكرين والنُقَّاد - فى الغرب ذاته - قد بيَّنوا زيف هذه النظرية الوهمية وبطلانها ، وأتوا على بنيانها من القواعد .

ومن أبرز الأدلة على بطلان هذه النظرية ما يلى :

إن « كومت » وأنصاره جعلوا من نظريته قانوناً يستوعب

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، للدكتور محمد البهى ص ٢٨١ - الطبعة الثانية .

التاريخ كله فى شوط واحد ، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل ، ونفضت - أو كادت تنفض - يدها منهما إلى غير رجعة ، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى شبابه وطفولته .

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية ، كلما ختمت البَشرية شوطاً ، رجعت عَوْداً ، لكان الخطأ فى هذه النظرية أقل شناعة [1] ، وربما كان « تاريخ المعرفة » فى الغرب يؤيد ذلك .

« فقد كانت معرفة الإنسان قبل تفلسف الإغريق ذات طابع دينى . . ثم أصبحت على عهد « سقراط » و« أفلاطون » عقلية . . ثم مالت بعد ذلك على عهد « أرسطو » إلى التجربة والواقع .

« ثم ابتدأت تجربة أُخرى من جديد ، فاعتبر الدين فى القرون الوسطى مصدراً للمعرفة . . ثم جعل للعقل اعتباره - بدلاً من الدين - فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر . . ثم قوى الميل إلى اعتبار المعرفة الحِسِّية

---

(١) انظر : الدين ، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ، ٨٥

أو الوضعية وحدها – دون العقل والدين معاً – فى القرن التاسع عشر .

« هذه دَوْرة ثلاثية لـ « اعتبار المعرفة » فى تاريخ الإنسانية . فإذا كانت هذه الدَوْرة الثلاثية قانوناً لا يتخلف للمعرفة ، أو بالأحرى لاعتبار مصدر المعرفة ، فالمنتظر – بناء على سير التاريخ – أن يعود الاعتبار إلى الدين من جديد ، بعد أن قويت موجة الواقعية أو الوضعية فى القرن التاسع عشر . فتنكسر حدتها ، فتضعف ، فيقل اعتبارها ، وعندئذ يعود الاعتبار فى المعرفة للدين وحده » – كما قال أستاذنا الدكتور محمد البهى فى كتابه القيم « الفكر الإسلامى الحديث » (١) .

هذا هو منطق التاريخ الذى استخدمه « كومت » نفسه ، ولكنه لم يستخدمه بإنصاف وتجرد وموضوعية كما هو منطق « العلمية » الذى ينادي به ، بل كان فى أكثره – كما

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ، للدكتور محمد البهى ص ٣٢٤ – ٣٢٥ – الطبعة الثانية . دار القلم – القاهرة .

يقول الأستاذ « فندلبند » فى كتابه « تاريخ الفلسفة » - يقوم على الهوى ، وعدم المعرفة ، والحكم المغرض [1] .

وهذا الذى ذكرناه مبنى على افتراضنا التسليم بوجود أدوار تاريخية ثلاثة متعاقبة . والحقيقة أن هذه دعوى لم يقم عليها برهان صحيح ، بل هى - فى اعتمادها على التاريخ - تحرِّف التاريخ ، وفى ادعائها الاعتماد على الواقع ، تصادم الواقع .

وماذا يقول فيلسوف الوضعية فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفيه نرى الدين والعقل والعلم ، تنمو وتزدهر وترتقى كلها جنباً إلى جنب ، فتجد الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين والمتصوِّفة ، وبجوارهم الفلاسفة والمتكلمين ، وإلى جانبهم العلماء من الأطباء والكيميائيين والفلكيين والفيزيائيين والرياضيين .

بل ربما تجد الشخص الواحد يجمع النواحى الثلاثة فى شخصه ، كما يتضح ذلك فى سيرة ابن رشد الحفيد ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣

صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه الإسلامى المقارن ، وأكبر شارح لفلسفة « أرسطو » فى تلك العصور ، وصاحب كتاب « الكليات » فى الطب .

وكثير من علماء المسلمين التجريبيين كانوا فقهاء ومتصوِّفة .

وهذا ما وقع ويقع فى تاريخ الأُمم كافة ، إلى اليوم .

فنحن ما زلنا نسمع ونرى فى كل عصر فريقاً يُقدِّس الروحانيات ، وآخر مشغوفاً بالمعقولات الكلية والنظرة التجريدية ، وغيرهما لا يعنى إلا بالحوادث الجزئية ومعرفة ما بينها من ترابط وجودى .

والملحوظ أن الدور الأول - الذى يقولون إنه يتمثل فى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى - قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء . . .

وفى الدور الفلسفى - الذى يقال إنه شمل العصور القديمة - قد وُجِدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية ، وعُرِفت هندسة « إقليدس » ، وطب « أبقراط » ، وطبيعيات

« أرسطو » ، وكيمياء العرب وفلكهم وطبهم وسائر علومهم التجريبية (كما ذكر لوبون وبريفولت وغيرهما) .

وفي الدور الوضعي - الذى هو طابع العصور الحديثة فيما يقولون - توجد كثرة غفيرة من دعاة الدين والقِيَم الأخلاقية والتأمل الفلسفي [1] .

بل نرى كثيراً من رجال العلم التجريبي - نفسه - وأقطابه في القرن العشرين يؤيدون - بأسلوب علمي - حقائق الدين وينادون في صدق واقتناع بوجوب العودة إلى الإيمان .

ونذكر من هؤلاء الأستاذ « كريس موريسون » رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك وصاحب كتاب « الإنسان لا يقوم وحده » المعرَّب تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » .

ومنهم عالِم النفس التجريبي الدكتور « هنرى لنك » صاحب كتاب « العودة إلى الإيمان » الذى طُبِع حوالى خمسين مرة في أمريكا وحدها .

---

(١) أسس الفلسفة ص ٢٠٩

ومنهم ثلاثون عالِماً أمريكياً فى مختلف الاختصاصات ، كتب كل واحد منهم مقالة يبيِّن بها كيف عرف الله واهتدى إليه بوساطة علمه . ومن هذه المقالات تكوَّن كتاب « الله يتجلَّى فى عصر العلم » الذى نُقِل أيضاً إلى العربية .

فالواقع أن الحالات الثلاث التى يصوِّرها « كومت » لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تمثل نزعات وتيَّارات متعاصرة فى كل الشعوب ، وليست متناقضة ولا متضادة بحيث إذا وُجِدت إحداها تنتفى الأُخرى .

بل نقول ما قال أستاذنا المرحوم الدكتور دراز : « إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة فى نفس كل فرد ، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً فى إقامة الحياة الإنسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها . ففى الوقت الذى نفسِّر فيه الحوادث بأسبابها المباشرة خارجية وداخلية ، فنقول : هلك فلان بضربة سيف ، أو لشيخوخة أو لمرض ، لا يزال كل واحد منا نفسِّر الحوادث الشاذة

الخارقة بالقضاء والقَدَر ، أو بسبب غيبى مجهول »[1] - أى مع إيمانه بالعلم الوضعى الواقعى .

إن المعرفة العلمية الواقعية القائمة على تتبع الجزئيات وتسجيل الظواهر والعلاقات بينها ، ليست هى قمة المعرفة الإنسانية ، ولا غاية النضج البَشرى .

فإن المعرفة العلمية التجريبية نفسها تحتاج إلى أساس فلسفى ، فإن الفلسفة - بمعنى النظر فى العلل والكليات وما وراء الظواهر والجزئيات - هى التى تقوم بتفسير الملاحظة والتجربة وغيرها من مقوِّمات العلم . . بل إن العلم نفسه ليس إلا حقيقة من الحقائق التى تعالجها الفلسفة فى نظرية المعرفة : كيف يكون العلم ممكناً ، وتحت أى ظروف نتصور هذا العلم ، وما أدوات العلم وما طبيعته ؟ . . إلخ ،

---

(١) الدين : للدكتور محمد عبد الله دراز - مطابع دار الكتب - بيروت . ص ٨٥ - ٨٦ ، وانظر : أُسس الفلسفة : للدكتور الطويل ص ٢٠٨ - ٢٠٩

أى إننا نحتاج إلى « علم العلم » : إلى تحليل العقل وقوانينه . وهذه كلها موضوعات تدخل فى مجال ما بعد الطبيعة [1] .

ومن هنا يقرر المرحوم الدكتور دراز [2] أن الأمر على عكس ما ذهب إليه « كومت » تماماً : أن النظرة الواقعية تقع فى مبدأ الطريق لا فى نهايته ، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، لا مرحلة النضج والكمال ، ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية ، وبأنها وظيفة الحس لا العقل ، وبأنها من معدن القابلية والانفعال ، لا من معدن الفاعلية والإنشاء .

أما نظرة التعليل بالمعانى العامة فإنها تنبثق فى النفس على أثر ذلك ، متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم فى التصورات والأحكام ، فلا يكتفى الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة فى سلسلة متعاقبة ، كما تُجْمَع الأعواد فى الحزمة ، بل يحاول ربطها برباط معنوى تدور فى فلكه ، ويكون كالسلك الداخلى الذى ينتظم حبَّات العِقد .

---

(١) انظر : أُسس الفلسفة ص ٢٠٧ - ٢٠٩

(٢) « الدين » ص ٧٦ - ٨٧

ونؤكد أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم ، الذى يضع كل مجموعة فى نطاق يضبطها ، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها ويكون لها بمثابة قانون كُلِّى تعلل به جزئياتها ، بل العلوم الواقعية تسعى الآن جاهدة للاندماج برمتها فى منظمة تنسقها وتُخضع جميع ظواهرها لناموس واحد ، وهذا هو ما يسمى بمبدأ « وحدة الوجود » بمعناه العلمى (Monism Scientifique) ، وسواء أبلغت العلوم هذا الهدف قريباً أو بعيداً أم لم تبلغه أبداً ، فالذى لا شك فيه هو أن هذه النزعة إلى استنباط المعانى الكلية لم تفتر بل تزداد قوة .

بقيت النظرة الروحية أو الدينية ، وواضح أنها لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أُفقها . فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه ، فهى أوسع النظرات مجالاً ، وأبعدها مطلباً .

وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيَّله الفيلسوف رأساً على عقب ، وتعود الحاجات النفسية الثلاث إلى أوضاعها

الطبيعية المعقولة : حاجة الحس ، فحاجة العقل ، فحاجة الروح . . وإن شئت قلت : حاجة الحس ، فحاجة العقل القانع ، فحاجة العقل المتسامى .

« على أن الذى يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمى لكل واحدة من هذه النزعات ، وإنما هو دخولها جميعاً فى كيان النفس الإنسانية . فكما إننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية ، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان ! يقول الفيلسوف الفرنسى « سالمون ريناك » : « ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب ، بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شىء منها أبداً . ذلك لأنه سيبقى فى الكون دائماً أسرار ومجاهيل ، ولأن العلم لن يحقق مهمته على وجه الكمال » [1] .

ويقول الدكتور « ماكس نوردوه » عن الشعور الدينى :

---

(١) انظر : الدين ص ٨٧

« هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين ، كما يجده أعلى الناس تفكيراً ، وأعظمهم حدساً ، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ، وستتطور بتطورها ، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة » [1] .

ويقول « أرنست رينان » فى « تاريخ الأديان » : « إن من الممكن أن يضمحلّ كل شىء نحبه ، وأن نبطل استعمال العقل والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حُجَّة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » [2] .

* * *

---

(١) راجع : مادة « دين » فى « دائرة معارف القرن العشرين » للمرحوم محمد فريد وجدى .

(٢) المصدر السابق .

ملاحظة جديرة بالتنبيه

بقيت هنا ملاحظة جديرة بالتنبيه والتسجيل . وهى : أن إيمان « أوچست كومت » وأنصاره وأمثاله بالعلم وحده ، ورفضهم للأفكار التى تأتى عن طريق « الفلسفة » و« الدين » إذا حللّنا دوافعه وظروفه التاريخية إنما يعنى فى الحقيقة أمرين :

● رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية :

الأول : رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية وتناقضاتها .

الفلسفة التى تطلب لنفسها الثقة والاعتبار العام فيما تذكره من أفكار وآراء عن الوجود ، وهى التى شرَّق فلاسفتها وغرَّبوا ، وبحثوا فى كل شىء ولم يكادوا يتفقون على شىء . وهذه - فى الواقع - هى حدود طاقة العقل البَشرى ، إذا سلك هذه المفازة - ما وراء الطبيعة - وحده ، دون دليل من هَدْى الله ووحيه المعصوم .

وهذا ما جعل الفيلسوف الألمانى الكبير « كانت » يُشبِّه العبارات « الميتافيزيقية » بأنها : « ورق نقد بدون ضمان »

وذلك ليبيِّن أن صنعة العقل الإنسانى فيما بعد الطبيعة لا تأتى بيقين حقيقى ، لأن العقل - إذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحسِّية إلى دائرة فوقهَا أعلى منها - لم يستطع أن يأتى إلا بالظن والتخمين . فالعقل - بحكم أنه محدد بالبيئة والمكان والزمان والثقافة الخاصة والجو الطبيعى والاجتماعى والسياسى - لا يملك أن يأتى بيقين عن الوجود المطلق غير المحدد بالمكان أو الزمان أو بشىء مما يُحدَّد به الإنسان [1] . فالموجود المحدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، وكل ما يفعله أن يقيس وجوده على وجود نفسه ، وذلك ظن ، وليس بيقين . بل هو فى الحقيقة قياس فاسد ، إذ ليس ثمت جامع مشترك بين المقيس والمقيس عليه .

وما انتهى إليه « كانت » هو نفس ما انتهى إليه - أو إلى ما يشبهه أو يقرب منه - كثير من الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً ، وهو الجانب الذى أطلق عليه المفكر العربى المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود : « خرافة الميتافيزيقا » !!

بل إن هذا يشبه ما انتهى إليه جماعة من أئمة علم

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

الكلام من المسلمين الذين خاضوا لجج العلوم العقلية ، فلم يظفروا منها بطائل ، حتى إن بعضهم تمنى فى ختام عمره إيماناً كإيمان العجائز ! [1] .

ومن أجل هذا قال أحد أساتذة الفلسفة [2] : إن الفلسفة لا رأى لها ، وذلك لأنها فى مسائل ما وراء الطبيعة وما شابهها من القضايا الكبرى ، تقول الشىء وضده ، وتصدر الحكم ونقيضه ، يعنى : أن ما يقوله فيلسوف ينقضه آخر ، وما يبيِّنه واحد يأتى آخر فى عصره أو بعده فيهدمه من أساسه . وبهذا لا تستطيع الفلسفة البَشرية أن تعطى رأياً واحداً محدداً فى قضية كبرى ، فلا غرو أن يكون الوضعيون معذورين فى موقفهم من الفلسفة الميتافيزيقية . وهذا هو وضعها .

* *

---

(١) انظر : أقسام اللَّذات : للفخر الرازى ، والعقيدة النظامية : لإمام الحرمين الجوينى .

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر وعميد كلية أُصول الدين (ثم وكيل الأزهر فوزير الأوقاف وشئون الأزهر ، فشيخ الأزهر أخيراً) .

● المراد بالدين « دين الكنيسة الغربية » :

الأمر الثانى : إن رفض الدين والتنديد به إنما يراد به : دين الكنيسة الغربية حينذاك ، وما تتبناه من أفكار يرفضها العقل ، وينكرها العلم . . وهذا ما جعل عدداً من الفلاسفة يؤمنون بالله وبالدين ، وينكرون - فى الوقت نفسه - المسيحية ، مسيحية البابا والكنيسة والكَهَنة [١] .

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن زعيم المذهب

---

(١) انظر : الفلسفة الخُلُقية . . نشأتها وتطورها ، للدكتور توفيق الطويل - الطبعة الثانية ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وفيه : أن « كومت » - رغم إعجابه بدعوة المسيحية إلى الإيثار والمحبة ومساعدة الضعفاء - أخذ عليها أنها جمدت والعالَم يجرى فى رِكاب العلم ، إذ ارتبطت بالكاثوليكية التى تعثَّرت فى مسايرة التقدم العقلى ، ومتابعة ما تقتضيه مناهج البحث العلمى . ثم ما لبثت أن جمدت وتصدَّت - دفاعاً عن وجودها - لمقاومة التقدم وعرقلة سيره . ومن هنا نشأ النزاع الذى أتى على الأخلاق المسيحية ، فراحت هذه ضحية الروح الكاثوليكية وجمودها . ومن أجل هذا انصرف « كومت » عن اتخاذ المسيحية أساساً للأخلاق الجديدة ، وتطلَّع إلى إقامتها على أُسس علمية وضعية .

الوضعى الواقعى - أوچست كومت - نفسه ، الذى كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم ، قد عاد فى آخر أمره متصوِّفاً عجيباً ! وكلَّل حياته بوضع ديانة جديدة ، معبودها الأكبر هو : « الإنسانية » . وقد طبع هذه الديانة على غرار النظام الكَنسى للكاثوليكية ، فى عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها ، وطبقات قساوستها . رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغيِّر إلا أشخاصها !! [1] .

ولعلّ « كومت » وكبار مدرسته لو عرفوا حقيقة دين كالإسلام ، اتسمت تصوراته وأخلاقه وأنظمته بالشمول والتوازن والإيجابية والواقعية ، وفسح المجال للعقل والعلم إلى أبعد مدى ، ما وجد نفسه محتاجاً إلى اختراع دين جديد ، ولوجد فى الإسلام ما ينشده وفوق ما ينشده [2] .

---

(١) انظر : الدين ، للدكتور دراز ص ٩٤

(٢) قلت هذا عن « أوچست كومت » ونشرته منذ سنوات ، ولم أكن أعلم أن الرجل قرأ عن الإسلام بعض الشيء ، واعترف له بالعلمية والواقعية ، وهذا ما سجَّله المفكرُ العربى المسلم الدكتور رشدى فكَّار فى بعض بحوثه .

ومهما يكن الأمر ، فإن موقف « كومت » آخراً لشهادة ناطقة على أن الدين لم ينته دوره كما زعم ، ولن ينتهى دوره ما بقى الإنسان .

فالدين جزء أصيل من فِطرة الإنسان ، وحاجة بَشرية حقيقية لا غِنى عنها . وربما أمكن الإنسان أن يستغنى عن العلم ، كالبدائيين من البَشر ، ولكن لم نر جماعة فى مكان ما أو زمان ما ، استغنت عن الدين .

وقد نجد من الناس مَن يتمرد على الدين ، ويثور على التدين ، ولكنه فى الواقع إنما يتمرد على الزيف والتحريف فى الدين ، إنما يثور على دين وضعى أو دين محرَّف منسوخ ، كما وجدنا طبيب النفس الأمريكى الشهير الدكتور « هنرى لنك » ، مؤلف كتاب « العودة إلى الإيمان » الذى ثار على الكنيسة الغربية ، ثم رجع إلى الدين بعد تجارب ومشاهدات ردَّته إلى رحابه ، ولكنه فى الواقع لم يعد إلى دينه القديم ، كما حدَّثنا هو عن نفسه ، بل عاد إلى

دين فِطرى هو عند التحليل أقرب ما يكون إلى عقيدة الإسلام [١] .

فمن الخطل البيِّن القول بأن الدين قد ولَّى الأدبار ، أو أصبح فى خبر كان . فربما صَحَّ هذا القول بالنظر إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر . أما القرن العشرين ، فيسوده اتجاه قوى للعودة إلى الإيمان ، والرجوع إلى القيم الروحية ، والهداية الإلهية التى جاء بها رُسُل الله .

إننا نرى رجلاً مثل « توينبى » - أكبر مؤرخى هذا العصر وأحد أقطاب الفكر العالمى - يقول عن نفسه : إنه من المؤمنين بأن الدين هو أهم ما فى الوجود [٢] .

ويقول : « الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية . وحسبنا القول بأن افتقار المرء إلى الدين يدفعه

---

(١) انظر : كتابنا « الإيمان والحياة » فصل « بين العلم والإيمان » . وخصوصاً ما كتب تحت عنوان « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

(٢) مختصر دراسة للتاريخ : ٣/ ١٧٣

إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا نملك منها شيئاً » [(١)] .

ونجد كاتباً مطلعاً على الفكر العالَمى واتجاهاته المعاصرة مثل المرحوم عباس محمود العقاد ، يحدِّثنا عن جمٍّ غفير من أنصار الإيمان ، ودعاة الروح فى كتابه « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » .

وفى كتاب « الله يتجلّى فى عصر العلم » نجد ثلاثين عالِماً أمريكياً فى شتَّى تخصصات العلوم الكونية والرياضية وغيرها ، يكتبون - من خلال علومهم - مؤيدين للإيمان .

وينقل أحد هؤلاء عن العالِم الطبيعى والكاتب اللامع « أوليفر وندل » قوله : « كلما تقدَّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف ، فالفهم الحقيقى للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله » [(٢)] .

* * *

---

(١) نفس المصدر : ٣/ ١٧٩.

(٢) « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٥٢

حاجة الإنسان إلى الدين

إن حاجة الإنسان إلى الدين ليست حاجة ثانوية ولا هامشية ، إنها حاجة أساسية أصيلة ، تتصل بجوهر الحياة ، وسر الوجود ، وأعمق أعماق الإنسان .

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين فى حياة الإنسان :

• حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى فى الوجود :

١ - حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق - أول ما تنبثق - من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله . أى إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التى شغلت بها فلسفات البَشر ولم تقل فيها ما يشفى .

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟! ومهما تشغله مطالب العيش من هذا التساؤل ، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة :

(أ) يقول الإنسان فى نفسه : من أين جئتُ وجاء هذا الكون العريض من حولى ؟ هل وُجِدتُ وحدى أم هناك خالق أوجدنى ؟ ومَن هو ؟ وما صلتى به ؟ وكذلك هذا العالَم الكبير بأرضه وسمائه ، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه . هل وُجِد وحده أم أوجده خالق مُدبِّر ؟

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة . . وبعد الموت ؟ إلى أين المسير بعد هذه الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضى ؟ أتكون قصة الحياة مجرد « أرحام تدفع ، وأرض تبلع » ولا شىء بعد ذلك ؟ وكيف تستوى نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضَحّوا بأنفسهم فى سبيل الحق والخير ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضَحّوا بغيرهم فى سبيل الهوى والشهوة ؟ أتختتم الحياة بالموت ؟ . . أم هناك وراء الموت حياة يُجزَى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحُسْنى ؟

(جـ) ثم لماذا وُجِد الإنسان ؟ لماذا أُعطى العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان ؟ لماذا سُخِّر له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ أهناك غاية من وجوده ؟ أله مهمة فى

حياته ؟ أم وُجِد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام - ثم ينفق كما تنفق الدواب ؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هي ؟ وكيف يعرفها ؟

أسئلة تلح على الإنسان في كل عصر ، وتتطلب الجواب الذي يشفي الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافي إلا باللُّجوء إلى الدين .. إلى العقيدة الدينية الصافية . الدين هو الذي يُعرِّف الإنسان - أول ما يعرِّفه - أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة ، ولا قام في هذا الكون وحده ، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم ، هو ربه الذي خلقه فسوَّاه فعدله ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وأمدَّه بنعمه الغامرة ، منذ كان جنيناً في بطن أُمه : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريباً عنه ولا عدواً له . إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافاً ولا يمشي اعتباطاً ،

---

(١) المرسلات : ٢٠ - ٢٣

كل شيء فيه بقَدَر ، وكل أمر فيه بحساب وميزان . إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة . ينعم بخيراته ، ويستفيد من بركاته ، ويتأمل في آياته ، فيستدل به عن ربه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (1) . ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (2) .

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير ، وبرب الوجود كله ، ولا يعيش منطوياً على نفسه ، معزولاً عما حوله ، أو خائفاً منه .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : إلى أين يسير بعد الحياة والموت ؟ إنه يُعرِّفه أن الموت ليس فناءً محضاً ، ولا عدماً صرفاً ، إنما هو انتقال إلى مرحلة أُخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أُخرى تُؤتَى فيها كل نفس بما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أُنثى ، ولا يفلت من العدل الإلهى جبار

---

(1) الأعلى : 2 - 3 (2) آل عمران : 190

أو مستكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [1] . . بهذا يعيش الإنسان بوجدانه فى الخلود ، ويعلم أنه خلق للأبد ، وإنما ينتقل بالموت من دار إلى دار .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : لماذا خُلِق ؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل ؟ يُعرِّفه بغاية وجوده ، ومهمته فيه . إنه لم يُخلق عبثاً ، ولم يُترك سدىً ، إنه خُلق ليكون خليفة فى الأرض ، يعمرها كما أمر الله ، ويُسخِّرها لما يحب الله ، يكشف عن مكنوناتها ، ويأكل من طيباتها ، غير طاغٍ على حق غيره ، ولا ناسٍ حق ربه . وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده ، ولا يُشرك به شيئاً ، وأن يعبده بما شرع على ألسنة رُسُله ، الذين بعثهم إليه هداة معلمين ، مبشرين ومنذرين ، فإذا أدَّى مهمته فى هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء ، وجد جزاءه هناك فى الدار الآخرة : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ [2] .

---

(١) الزلزلة : ٦ – ٨ (٢) آل عمران : ٣٠

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده ، ويستبين مهمته فى الحياة ، بيَّنها له بارئ الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

إن الذى يعيش بغير دين - بغير عقيدة فى الله والآخرة - إنسان شقى محروم حقاً . إنه فى نظر نفسه مخلوق حيوانى . ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التى تدب على الأرض من حوله . . . والتى تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق ، بدون أن تعرف لها هدفاً ، أو تدرك لحياتها سراً . إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة ، وُجِد ولا يعرف كيف وُجِد ، ولا مَن أوجده ؟ ويعيش ولا يدرى لماذا يعيش ؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ إنه فى شك - بل فى عمى - من أمره كله : محياه ومماته ، مبدئه ومنتهاه ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (١) .

---

(١) النمل : ٦٦

وما أقسى حياة إنسان يعيش فى جحيم الشك والحيرة أو فى ظلمات العمى والجهل ، فى أخص ما يخصه : فى حقيقة نفسه ، وسر وجوده ، وغاية حياته . إنه الشقى التعيس حقاً ، وإن غرق فى الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم ، وحمل أرقى الشهادات ، وتسلَّم أعلى الدرجات ! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيَّام يقول فى حال حيرته وشكه :

لبستُ ثوب العمر لم أُستشر

وحِرتُ فيه بين شتَّى الفكر !

وسوف أنضو الثوب عنى ، ولم

أدر : لماذا جئتُ ، أين المفر ؟

وبين آخر يقول فى يقين وطمأنينة :

وما الموت إلا رحلة ، غير أنها

من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

ويقول عمر بن عبد العزيز : « إننا خُلِقنا للأبد ، وإنما نُنقَل من دار إلى دار » .

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق - قبل كل شىء - من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى . وأول هذه الحقائق وأعظمها وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه . فبمعرفته والإيمان به - جلَّ شأنه - تنحل عقد الوجود ، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة ، ويتحدد المنهج والطريق .

* *

● حاجة الفِطرة البَشرية :

٢ - ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية . ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً . فالإنسان ليس عقلاً فقط ، كالأدمغة الألكترونية . إنما هو عقل ووجدان وروح . هكذا تكوَّنت فِطرته ، ونطقت جبلته . فالإنسان بفطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة ، ولا يشبع نهمته فن ولا أدب ، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة ، ويظل قلق النفس ، جوعان الروح ، ظمآن الفطرة ، وشاعراً بالفراغ والنقص ، حتى يجد العقيدة فى

الله ، فيطمئن بعد قلق ، ويسكن بعد اضطراب ، ويأمن بعد خوف ، ويحس بأنه وجد نفسه .

يقول الفيلسوف « أچوست سياتيه » فى كتابه « فلسفة الأديان » [1] : « لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أُحرِّك شفتى بهذا السؤال مرة ، إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين ، لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك له أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضتُ علىَّ نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها » .

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأُمم ، بدائية ومتحضرة ، وفى كل القارات شرقية وغربية ، وفى كل العصور قديمة وحديثة ، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم .

يقول المؤرخ الإغريقى « بلوتارك » : « قد وُجِدت فى

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ، للمرحوم محمد فريد وجدى .

التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا قصور ، ومدن بلا مدارس ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد » . . . .

ولهذا جعل القرآن الدين - بمعنى العقيدة - هو الفطرة البَشرية نفسها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .

* *

• حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية :

٣ - وثمت حاجة أُخرى إلى الدين : حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها : وآلامه بها .. حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوى إليه ، وإلى سناد متين يعتمد عليه ، إذا ألَّمت به الشدائد ، وحلَّت بساحته الكوارث ، ففقد ما يحب ، أو واجه ما يكره ، أو خاب ما يرجو ، أو وقع به ما يخاف . هنا تأتى العقيدة الدينية ، فتمنحه القوة عند الضعف ، والأمل فى ساعة اليأس ، والرجاء فى لحظة الخوف ، والصبر فى البأساء والضراَّء ، وحين البأس .

---

(١) الروم : ٣٠

إن العقيدة فى الله وفى عدله ورحمته ، وفى العوض والجزاء عنده فى دار الخلود ، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية ، فتشع فى كيانه البهجة ، ويغمر روحه التفاؤل ، وتتسع فى عينه دائرة الوجود ، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق ، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد فى حياته القصيرة الفانية ، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ، ولا يغنى عنه علم ولا فلسفة ، ولا مال ولا ولد ، ولا مُلْك المشرق والمغرب .

ورضى الله عن عمر إذ قال : « ما أصبتُ بمصيبة إلا كان لله علىّ فيها أربع نِعَم : أنها لم تكن فى دينى . . . وأنها لم تكن أكبر منها . . . وأننى لم أُحرم الرضا عند نزولها . . . وأننى أرجو ثواب الله عليها » (١) .

أما الذى يعيش فى دنياه بغير دين ، بغير إيمان ، يرجع إليه فى أُموره كلها - وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب ،

---

(١) انظر موضوع « الثبات فى الشدائد » من كتابنا « الإيمان والحياة » ، وكذلك موضوع « القوة » - طبع - مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

وتتابعت الكروب ، والتبست على الناس المسالك والدروب - يستفتيه فيفتيه ، ويسأله فيجيبه ، ويستعينه فيعينه ، ويمنحه المدد الذى لا يُغْلَب ، والعون الذى لا ينقطع - الذى يعيش بغير هذا الإيمان - يعيش مضطرب النفس ، متحير الفكر ، مبلبل الاتجاه ، ممزَّق الكيان ، شبَّهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال « راڤاياك » التعس . الذى يحكون عنه أنه اغتال الملك ، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد ، ثم أُلهب ظهر كل منها ، لتتجه مسرعة إلى جهة من الجهات الأربع ، حتى مُزِّق جسمه شر مُمزَّق !

هذا التمزق الجسمى البشع مثل للتمزق النفسى الذى يعانيه مَنْ يحيا بغير دين ، ولعل الثانى أقسى من الأول وأنكى فى نظر العارفين المتعمقين ، لأنه تمزق لا ينتهى أثره فى لحظات ، بل هو عذاب يطول مداه ، ويلازم مَن نُكِب به طول الحياة .

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرَّضون أكثر من غيرهم للقلق النفسى ، والتوتر العصبى ،

والاضطراب الذهنى ، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة ، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً ، وإما عاشوا مرضى النفوس ، أمواتاً كالأحياء ! على نحو ما قال الشاعر العربى قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميت إنمـا الميت ميت الأحياء !

إنما الميت مَن يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء !

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسى فى العصر الحديث . وهو ما سجَّله المفكرون والنُقَّاد فى العالَم كله .

يقول المؤرخ الفيلسوف « أرنولد توينبى » :

« الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية ، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا تملك منه شيئاً » (١) .

---

(١) مختصر دراسة التاريخ : ٣/ ١٧٩

ويقول الدكتور « كارل بانج » فى كتابه « الإنسان العصرى يبحث عن نفسه » : « إن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية ، من كل أنحاء العالَم ، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم ، وتزعزع عقائدهم ، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم » (١) .

وبقول « وليم چيمس » فيلسوف المنفعة والذرائع : « إن أعظم علاج للقلق - ولا شك - هو الإيمان » .

ويقول الدكتور « بريال » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعانى قَط مرضاً نفسياً » .

ويقول « ديل كارنيجى » فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : « إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين ، كفيلان بأن يقهرا القلق والتوتر العصبى ، وأن يشفيا من هذه الأمراض » .

وقد أفاض الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه « العودة

---

(١) انظر : كتاب الإسلام يتحدى ، ص ٢٨١

إلى الإيمان » فى بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجرَّبه من وقائع وفيرة ، خلال عمله فى العلاج النفسى [1] .

* *

● حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية :

٤ - وهناك حاجة أُخرى إلى الدين : حاجة اجتماعية ، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط : بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير ، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البَشر مَن يراقبهم ، أو يكافئهم .. وضوابط تحكم علاقاتهم ، وتُلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده ، ولا يعتدى على حق غيره أو يُفرِّط في خير مجتمعه ، من أجل شهوات نفسه ، أو منفعته المادية العاجلة .

ولا يقال : إن القوانين واللَّوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث ، فإن القوانين لا تخلق باعثاً ،

---

(١) انظر : فصل « بين العلم والإيمان » من كتابنا « الإيمان والحياة » وبخاصة ما كُتِب تحت عنوان : « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

ولا تكفى ضابطاً ، فإن الإفلات منها ممكن ، والاحتيال عليها ميسور ، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية ، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها . لا بد من هذا الباعث الداخلى ، ومن هذا : الوازع الذاتى ، لا بد من « الضمير » ، أو « الوجدان » أو « القلب » ، سمه ما شئت - فهو القوة التى إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد كله .

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ ، أن العقيدة الدينية لا يغنى غناءها شىء فى تربية الضمير وتزكية الأخلاق ، وتكوين البواعث التى تحفز على الخير ، والضوابط التى تردع عن الشر ، حتى قال بعض قضاة العصر فى بريطانيا - وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة ، رغم تقدم العلم ، واتساع الثقافة ، ودقة القوانين - : « بدون أخلاق لا يوجد قانون ، وبدون إيمان لا توجد أخلاق » [1] .

---

(١) انظر : فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » - طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين ، بدون عقيدة فى الله وفى الجزاء فى الآخرة ، حتى قال « ڤولتير » : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه » ! أى نخترع للناس إلهاً يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات ، ويتجنبون السيئات .

ويقول مرة أخرى ساخراً : « لِمَ تشككون فى وجود الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى » !!

وقال « بلوتارك » : « إن مدينة بلا أرض تقوم عليها ، أسهل من قيام دولة بلا إله » !!

* *

● شهادة التاريخ والواقع :

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان فى الحياة ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى .

يقول الأستاذ العقَّاد : « إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه ، فى علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه .

« ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأخرى فى حركات الأُمم ، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة .

« هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العُرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام .

« أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود

بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلىٰ غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى فى القِدَم ، وآباد لا تُحصَى فيما ينكشف عنه عالَم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى ، وغاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التى لا دين لها ، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين .

« وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطَّل الضمير ، مضطرب الشعور ، يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه .

« لهذا . . الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أُصولها !

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطَّل الضمير ، على شىء من

القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلَّت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة » [1] .

* * *

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ - ١٦

لا بديل عن الدين

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوچيات » الحديثة حيناً آخر .

وكِلا التصورين خطأ .

فقد بيَّن الواقع الناطق أنه لا شىء يغنى عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه فى أداء رسالته الضخمة فى حياة الإنسان .

● العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل . الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم بحقائق الوجود الكبرى . أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسِّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يُفسِّر له ألغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتَّى البِدع الفكرية والسلوكية ، ثائرين على آلية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات ، التى لمسها العالم كله فى سلوك أُولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبيين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القُدرة ، محدود المجال .

في وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس في وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع في العدوان ، أو أهداف البهائم في الأكل والسِفاد ، أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذى يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة ، وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه القِيَم الخُلُقية والمُثُل العليا التى تحبسه عن الشر ، وتحفزه على الخير ، لغير منفعة مادية عاجلة .

لقد أعطى العلم الإنسان جناحى طائر فحلَّق فى الفضاء ، وأعطاه خياشيم حوت فغاص فى أعماق الماء ، ولكنه لم يعطه قلب إنسان !

وحين يعيش الإنسان فى الحياة بغير « قلب الإنسان » تستحيل أدوات العلم فى يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب ، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر .

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية ، وقنابل نابالم ، وغازات سامة ، وأسلحة كيماوية وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها ، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها [١] .

أجل . . قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر ، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته !

لقد اكتشف الإنسان بالعلم « أشياء » كثيرة . ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه ! أوصله علم القرن العشرين إلى

---

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجرثومية » تأليف الدكتور نبيل صبحى ، لترى ما يحضِّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته « مؤسسة الرسالة » ببيروت .

القمر . ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض ! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة ، ولكنه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع فى كوكبه !

أصلح العلم ظاهر الإنسان ، وعجز عن إصلاح باطنه ، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك « اللَّطيفة الربَّانية » المدركة الواعية ، الشاعرة الحسَّاسة ، التى إذا صلحت صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، ألا وهى القلب ، أو النفس ، أو الروح ، سمها ما شئتَ ، فهى حقيقة الإنسان !

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوَى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشكه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدَّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع

القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و« النفسية » التي هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يُغَذِّى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية الشعور والأمانى والإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ، ممتلئ النواحى ، ولكن الجانب الآخر من الجسم - وهو أصل الإنسان - أصبح يعانى من أزمات لا حدَّ لها .

لقد أكَّدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب من ناحية أو أُخرى ، ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والجريمة والإرهاق واليأس والترقب والشك والأثرة والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جبَّاراً حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد فى سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

إن الإيمان بالله يعطى الإنسان « محرِّكاً » هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ومصدر قوة العقيدة . . . العقيدة التى عبَّر عنها السير « وليام أوسلر » بقوله : إنها قوة محرِّكة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل .

إن هذه العقيدة هى سر مخزن الصحة الموفورة التى يتمتع بها أصحابها . وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهى إلا بالأمراض أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض ، وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا فى الميدان

الأخير ، ولذلك أكبُّوا على الميدان الثانى يسترون خيبتهم ويُظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً : إن علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشَف أسرار « القفل » الدقيقة الذى سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة !

فالمجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد ، فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكمالات المادية ، على حين يتسبب - لتركه الدين - فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيماً ، إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم ، ويحقنك السم فى العضل !! [1] .

* *

● الأيديولوچيات الحديثة لا تغنى عن الدين :

وإذا كان العلم لا يصلح قَط بديلاً عن الدين ، فمثله المذاهب الفكرية الوضعية « الأيديولوچيات » التى أصبح

---

(١) عن كتاب « الإسلام يتحدى » ، تأليف : وحيد الدين خان ، تعريب : مظفر الإسلام خان ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩

لها فى عصرنا دعاتها ومبشروها . فهى لا تستطيع أبداً أن تقوم مقام الدين . وهذا أحد الخبراء العالمين بالمذاهب والحضارات يحدثنا عن ذلك . فلنستمع إليه .

يقول « أرنولد توينبى » فى كتابه « العادة والتغيير » :

« إن من الخصائص الأساسية للإنسان « الإدراك » . . إدراك وجوده . . وإدراك العالَم المحيط به . . سواء من البَشر أو العالَم المادى وغير المادى . . هذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختاراً فى تصرفاته ، ذا إرادة فيما يتخذ من قرارات . . فقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنه لا يعلم عن العالَم الذى يعيش فيه إلا القليل من القشور . . وأن هذا القليل الذى يعرفه لا يستطيع أن يُفسِّر له سر الحياة والكون . ولقد أدرك أن الكلمة الأخيرة فى مصيره ليست فى متناوله . . ولكنها مِلْك قوى قاهرة ، عليه أن يتعرَّف عليها ، وأن يعيش متوافقاً معها متصلاً بها .

وحيث إن التدين جزء من الطبيعة البَشرية . . وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما . . فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقعه فى

أوروبا أن قامت ديانات بديلة تسمى : المذاهب الفكرية ، أو « الأيديولوچيات » الفردية أو الرأسمالية ، والجَماعية أو الشيوعية ، والوطنية أو القومية .

إن الحرب الباردة التى يستعر أوراها بين « الأيديولوچيات » المعاصرة من جانب ، والأديان العليا (السماوية) من جانب آخر هى أخطر - بالنسبة لمستقبل البَشرية - من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية ، بالرغم مما يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمى . فهل هذه « الأيديولوچيات » أديان جديدة أم انتكاسات ؟

فى الحق إنها ليست أمراً جديداً . . إنها انتكاسة للحرية التى اكتسبها الإنسان عبر العصور . . إنها تأخر ورجعية إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قُوَى غامضة ، وهو حينما تقدَّم واستطاع أن يكون له دور مهم فى البيئة الطبيعية . . ترك عبادة قُوَى الطبيعة ، وعبد قُوَته الجَماعية كما تتمثل فى الحاكم .

إن الشيوعية قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على

العدالة الاجتماعية - ولكن فى تضحيتها بالحرية من أجل العدالة .

والرأسمالية أيضاً قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته - ولكن فى تضحيتها بالعدالة فى سبيل الفردية .

إن كلا منهما يؤيد جانب على حساب الآخر . . وكلتا النظريتين مادية ، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده . . فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان .

على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر فى الحياة ، ولن تستطيع إحداهما التغلب نهائياً على الأخرى . . والاثنان فى صراع مع الوطنية أو القومية . . ولو أن هذا الصراع لا يحظى باهتمام كبير . . ولكنه ما إن تصطدم إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية . . وحينئذ يصبح الشيوعى والرأسمالى وطنياً أولاً وتتبعها صفته الثانية : الشيوعية أو الرأسمالية .

إن جميع « الأيديولوچيات » تشترك فى نقطة ضعف

واحدة قد تودى بها جميعاً ، وذلك فى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير .

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان . . فبعد أن حرَّرته الأديان من عبودية المجتمع ، وعبودية الفرد ، ليتجه إلى الله وحده .. عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة . . عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة .

فتضاءل ليصبح مجرد نملة اجتماعية فى مجتمع النمل !!

لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية . . ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . . ولن تستطيع « الأيديولوچيات » أن تنسيه هذه الحقيقة . . لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته له الأديان . صحيح أن بعض الأديان قد أقامت سجوناً من صنعها ، حينما خلقت من الأجهزة والنُظم ما أصبح حاجزاً بين الإنسان وخالقه ، كما كان يصنع المجتمع القديم من قبل . . وهذا التحكم والتسلط من جانب بعض الأجهزة الدينية يتناقض أساساً مع سبب وجودهما فإنها

وُجِدت لتحرر الإنسان من إسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسئولياته فى علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة . . ومع ذلك فبالرغم من هذا التسلط والتحكم من جانب بعض الأديان ، إلا أنها استطاعت أن تمنح معتنقيها هدية لا تستطيع أن تجاريها فيها « الأيديولوچيات » الحديثة . . لقد منحته الاطمئنان من المساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح . . لقد منحته الراحة الروحية وحرَّرته من سجون المجتمع .

إن كل إنسان يخطئ ويفشل . . ويزل ويشقى . . وفى النهاية ينتهى إلى الموت ، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحى الذى لا تستطيع أن تقدمه له « الأيديولوچيات » .

ومع هذا فإن « الأيديولوچيات » ستستمر فى اجتذاب الناس إلى حظيرتها ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البَشر . . وهى لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت :

١ - أن تتعاون بدلاً من الصراع والعداوة .

٢ - وأن تهتم اهتماماً جدياً بحقائق العصر الحديث .

٣ - وأن تنفض عنها الطقوس التى طغت على جوهرها .. مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور .

فالدين هو قلب الحياة للإنسان .. وهو جوهر الحياة للإنسانية .. هو النور الذى يغمر القلوب ، فلا غِنَى للإنسان عن الدين .. ولن تستطيع « الأيديولوچيات » أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحى »(١) .

* *

• الرد على دعوى الماركسيين :

أما ما يردده الماركسيون من أن الدين « أفيون الشعوب » فهو ادعاء باطل ومردود من وجهين :

---

(١) عن مجلة « الوعى الإسلامى » السنة الثالثة - العدد السابع والعشرون - مقال « الأيديولوچيات والدين » . ترجمة الأستاذ محمد همام الهاشمى الخبير الاجتماعى بمجلس التخطيط بالكويت .

الأول : أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم في الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى . . ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه . . ثورة فى عالَم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالَم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هى هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّعٍ أو متعاط للأُلوهية في الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزوِّر لا وجود له . ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة ..

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس

وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ، ويأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه فى الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول الله الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل مَن رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطيع من قوته : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع

---

(١) هود : ١١٣ (٢) الأنفال : ٢٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [١] .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللِّسان أو اليد . وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبى ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجى . كلاهما جهاد فى سبيل الله . بل حين سُئِل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » [٢] فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه النسائى بإسناد صحيح كما فى « الترغيب » .

فهذا دين يحرِّض على مقاومة الظلم حتى الموت . ويعد الميت فى سبيل ذلك شهيداً فى سبيل الله ، بل فى طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة بن عبد المطلب ، سيد الشهداء كما قال عليه الصلاة والسلام : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » [1] .

إن الإسلام يُربِّى المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] ، بل من خصائص الإنسانية ولوازمها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ [3] .

ولهذا يبرأ الإسلام مِن كل مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع فى رِجله ، أو الغل يوضع فى عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص

---

(١) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسَّنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير .

(٢) المنافقون : ٨ (٣) الإسراء : ٧٠

منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (١) .

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبى لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقَدَر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى اللهُ وَنِعْمَ الوكيل » (٢) .

كره النبى العظيم من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبلة والحوقلة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذِكْرُ الله في غير موضعه عجز واستسلام .

---

(١) النساء : ٩٧ (٢) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ... احرص على ما ينفعك واستعن باللهِ ولا تعجز » [1] .

وجاء فى أدعيته التى علَّمها لبعض أصحابه : « اللَّهُمَّ إنِّى أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » [2] .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت : « اللَّهُمَّ إنَّا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكلُ عليك ، ونُثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا

---

(١) رواه مسلم .. والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسويف ، والكيس : العقل وحُسن التصرف .

(٢) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) وفى سنده راوٍ ليِّن الحديث ، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

نكفرك ، ونخلع ونترك مَن يفجرك » . . فانظر ما تحمله هذه العبارة : « ونخلع ونترك مَن يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية ، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون الشعب : يُخدِّره ويمنيه بنعيم الجنَّة ، ليسكت على مظالم حياته الدنيا ؟!!

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان - أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأُمم على مدار التاريخ ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .

قلت هذا عن « ماركس » منذ سنوات ونشرته مجلة

« منار الإسلام » فى دولة الإمارات العربية المتحدة . ثم أتيح لى أن أقرأ أخيراً ما كتبه الأستاذ الدكتور رشدى فكَّار - المتخصص فى دراسة الماركسية وفلسفتها وأُصولها ومدارسها - عن رجوع « ماركس » فى أُخريات حياته إلى الاعتراف بالدين بعد الرفض له ، وأن رفضه فى المراحل الأولى كان سياسياً ولم يكن فلسفياً . . وأن بعض مفكرى الماركسية الكبار من المعاصرين أمثال « روجيه جارودى » [١] أكَّدوا ذلك ، واعتبروه « مرونة » من ماركس . واعتبره « فكَّار » : « ارتداداً » ، والأوْلَى تسميته « رجوعاً » .

ينقل الدكتور فكَّار عن « ماركس » قوله بصريح العبارة :

« الإلحاد لا معنى له ، لأنه إنكار للإله بلا مبررات ، اللَّهُمَّ إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محل الإله » !

ويكرر « ماركس » نصاً : « الاشتراكية ليست فى حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريدية الجوفاء ، والمضاربة على الإله » .

---

(١) كُتِب هذا الكلام قبل أن يهتدى « جارودى » إلى الإسلام .

ومن الأدلة على تغير موقف « ماركس » : الرسالة التى وجهها إلى « البابا » يهنئه فيها على موقفه من « الحلف المقدَّس » ورفضه الدخول فيه ، والانضواء تحت لوائه : حلف أُولئك الذين شوَّهوا جوهر الدين ، حين اتخذوا منه « شُرطة روحية » فى خدمتهم والدين منهم براء !

ومن ذلك مهاجمته للفيلسوف الملحد المشهور « فيورباخ » حيث وصفه « بأنه جعل من الوجدان والروح الدينية شيئاً راكداً جامداً ، لا قدرة فيه أو له على التغيير » .

و« فيورباخ » هو صاحب الكلمة الجاحدة الجاهلة : « ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب : أن الإنسان هو الذى خلق الله » . .

وكبرت كلمة خرجت من فِيه ، ما قال إلا كذباً .

وأكثر من ذلك وأصرح وأوضح : هذا النص الذى يقول فيه « ماركس » حرفياً – كما يقول الدكتور فكّار – : « إن الإلحاد قد عاش وقته . . إنه تعبير سلبى ، لا يعنى

شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأُصلاء ، إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله ، وإنما هو تحرير الإنسان » [1] .

ولكن مهما يكن عذر « ماركس » فما عذر الذين نشأوا فى ديار الإسلام ، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوه من مصادره ومن كتابات المحققين من علمائه ودعاته ؟

إن الذى يقرأ الكتب الإسلامية يراها طافحة بإنكار علماء الدين وأئمته على الظلم والظَّلَمة ، والمناداة بإنصاف المظلومين من طبقات الشعب الكادحة [2] .

* * *

---

(١) انظر فى هذا : فصل « فى الماركسية والدين » من كتاب « تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع » ص ٥٥ - ٦٨ نشر مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) انظر : كتاب « مواقف حاسمة للعلماء فى الإسلام » للأستاذين : على شحاتة وأحمد رجب ، ففيه أمثله عديدة على ذلك . وخاصة فى فصل « حماة الشعب » .

أثر الإسلام فى حركات المقاومة والتحرر من الاستعمار

إن الذى يقرأ التاريخ الحديث يجد أن التيَّار الإسلامى كان وراء كل حركات المقاومة المستميتة للاستعمار فى كل صِقع من ديار الإسلام .

يقول الأستاذ « برنارد لويس » فى كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« ومنذ بدء التغلغل الغربى فى العالَم الإسلامى ، حتى يومنا هذا ، كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التى قامت فى وجهه : حركات إسلامية .

« ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة ، وبمشاكل الجماعة المسلمة التى سيطر عليها غير المسلمين ، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب .

« وأقوى الحركات الثورية التى قامت ، والتى كسبت أقوى التأييد ، وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية فى أُصولها ، وفى شعاراتها ، وفى الأُسلوب الذى عبَّرت به عن غايتها وسبيلها .

« ولقد مرّ العالَم الإسلامى فى تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربية بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة ، من المسايرة والرفض .. وحتى الأمس القريب كان للمشاكل التى تظهر دراسة ، وقياس ، وحلول فى إطار الإسلام .

« ونستطيع القول فى أيامنا هذه : إن من التهور التأكيد على أن « علمنة » المشاعر الإسلامية بلغت حداً لا رجوع بعده » (١) .

وفى موضع آخر يقول صاحب كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« وأهم حركات المقاومة للغربيين المنتصرين المحتلين ، وأكثرها نجاحاً ، كانت فى الأناضول ، حيث قام جمع من الثوار بقيادة مصطفى كمال ، وتحدوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانية التى كانت قائمة فى ظلهم .

« ولقد حجبت علمانية وقومية الكماليين التى أعلنوها

---

(١) الغرب والشرق الأوسط : ترجمة الدكتور نبيل صبحى ص ١٤٨ ، ١٤٩

أخيراً ، الطابع الإسلامى القوى لحركة المقاومة فى أول مراحلها ، ولقد كان شعار الحركة : تحرير أرض الإسلام ، وشعوب الإسلام ، وتحرير الخليفة - السلطان - وطرد الغزاة المشركين .

« ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة الإخوان الدراويش ، أبرز المؤسسين ، وأقوى المساندين لحركة المقاومة ، التى قادها - بعد ذلك - مصطفى كمال » (١) .

أى إن حركة المقاومة كانت فى أساسها إسلامية ، غذتها الروح الإسلامية والمشاعر الإسلامية ، ثم سرقها وقادها العلمانيون القوميون : مصطفى كمال وأشياعه ، ونسبوا فخرها لأنفسهم ، وقطفوا ثمارها لعلمانيتهم .

والوجه الثانى فى الرد على الماركسيين : أن الذى عابوه على الدين وقعوا هم فيه ! عابوا على الدين ما فيه من غيبيات وتنبؤات مستقبلة مجهولة ! ومذهبهم ملئ بالحتميات والتنبؤات التى يكنها صدر الغيب !

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٨

عابوا على الدين ما فيه من تعظيم للأنبياء والقدِّيسين ، وما فيه من رسوم وشعائر تعبدية . ومع هذا نجدهم قد اتخذوا الأسلوب نفسه ، فإن الماركسية - كما هو معلوم لدى دارسيها ونُقَّادها - ليست مجرد فلسفة باردة ، إنها ديانة ، لها عقائدها وإنجيلها ، ورسلها وقدِّيسوها وطقوسها وشعائرها ، « وإن حشود المتعبدين يمرون يومياً فى « موسكو » أمام جثمان « لينين » فى لحده الرخامى الأسود ، وعلى وجوههم أمارات الخشوع والإجلال ، مرور المؤمنين من قبل أمام رفات الشهداء » (1) (يعنى : فى المسيحية ، فالإسلام يعتبر هذه المظاهر من الشرك والوثنية) .

يقول الباحث الباكستانى الأستاذ ميرزا محمد حسين فى كتابه عن « الإسلام وتوازن المجتمع » (2) :

---

(1) كرمنلو ص ١٥٣ وما بعدها . نقلاً عن المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا : ٢٠٣/٢ ، ومن قريب رأينا الجماهير الغفيرة بالملايين فى الصين الشيوعية تقف وقفة التقديس والخشوع نفسها أمام جثمان الزعيم الصينى « ماو » فكيف يفسِّرون هذا الموقف تفسيراً مادياً وفقاً لفلسفتهم التقليدية ؟!!

(2) ترجمة فتحى عثمان ص ٧٩

« إن البلشفية (الشيوعية) تستميت فى عداء الدين ، من أجل مظاهره الغامضة ، وعدته من الطقوس والشعائر ، ومع ذلك لم تحرز البلشفية تفوقها إلا بانتحال أساليب الدين ووسائله . ومن هنا تُدْعَى الآن « ديناً » .

أما كتبها المقدَّسة فهى تعاليم « كارل ماركس » التى يُنظر إليها بكل إجلال ، باعتبارها كشفاً وإلهاماً ، كما يُنظر إليها باعتبارها معصومة من أى خطأ !

وللشيوعية شُرَّاحها ومريدوها ودعاتها ، حتى شهداؤها !

ولها عقائدها وأُصولها ، وبدعها الزائفة المرفوضة !

وهى تأخذ فى مطاردة الهراطقة . . وفى تصفية الزنادقة ، وفى إقامة محاكم التفتيش ، وفى عمل المذابح ضد المتشككين والمنكرين والمرتَدِّين !

ولها طرائقها فى « الإلهام » و« الحرمان » !

ولها معبد أوثانها ، وأيقوناتها . الڤاتيكان لديها هو « الكرملين » . والوثائق البابوية هى كتابات « ستالين » !

ولها طقوسها ورموزها المعقَّدة مثل أى دين ! [1] .

وإنها لتشغل قلوب أتباعها بوعود الخلاص ، وآمال المستقبل ، والجزاء المنتظَر فى نعيم الدنيا ! !

وهى تتظاهر بأنها لا تعرض للدين فى معانيه الموروثة التى تلقى احترام الناس ، كما أنها لا تحاول إصلاح مفاهيمه إصلاحاً سليماً يُعتد به .

ولكنها تعمل على أن تطوى الدين تماماً وتحل محله

---

(١) « الخطيئة » – فى نظر هذه الديانة – هى الرأسمالية ، و« إبليس وجنوده » هو : القُوَى البرجوازية والرجعية ، و« المُخلِّص » هو الحزب ، و« مملكة السماء » هو الشيوعية ، و« الكَهَنة » هم المحترفون الثوريون الذين يستشفون أعمق أعماق الطبقة الكادحة ، ويتلقون الأسرار الحقيقية من خلال « رؤاهم » ويذيعونها على « المؤمنين » ، وأخرويات هذه العقيدة الجديدة ليست « ميتافيزيقية » ، بل هى أخرويات « علمية » ، فهى « اشتراكية علمية » . أما الطقوس والابتهالات فيلتمسها هؤلاء فى نظرية وتكتيك الحزب عند لينين . . إلخ .

انظر : حلقة البحث الإسلامية : ما بعد النكبتين ص ٢٢ – ٢٣

شعارات معادية للأُلوهية ، ولكنها « دين » من طراز غريب » !

والواقع أن الذى ينبغى أن يُطلق عليه بحق أنه أفيون الشعب هو : الإيمان بالشيوعية ، فهى التى تُمنِّى الناس بجنَّة موهومة على الأرض ، جنَّة تختفى فيها الفوارق ، وينعم الناس بالرخاء والأمن والمساواة والحرية .

وقد مضى على قيام أول دولة ماركسية نحو ستين سنة وهم فى ظل ديكتاتورية متسلطة مستبدة لم ير التاريخ أشد منها ظلماً وطغياناً وتجبراً . وأصدق شاهد على ذلك حملات التطهير وحمَّامات الدم ، التى تُقام بين حين وآخر .

ومن الغريب أن تجد فى أبناء المسلمين مَن ينادى بإبعاد دينهم عن قيادة المجتمع ، وتوجيه الحياة فيه ، على حين نجد من مفكرى الغرب مَن يترقب أو يتمنى أن يكون للإسلام دور فى هداية المجتمع العالمى ، والأخذ بيديه إلى

الصراط المستقيم ، أو المنهج المتوازن الذى هو طابع هذا الدين .

يقول الدكتور « جرمانوس ».: « إن مستقبل العالَم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده ، لن يكون إلا فى المزاوجة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها ، وبين الروح العالية التى تنطوى عليها عقائد الدين الإسلامى . وإنى أُؤمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أُخرى على تحقيق هذه المعجزة فى سبيل وحدة الجماعة الإنسانية . . » .

* * *

محتويات الكتاب

الصفحة

الصفحة

رقم الإيداع: ٩٧٨٣ / ١٩٩٥م

I.S.B.N. 977 - 225 - 083 - 7

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت: ٤٨٢٧٨٥١

سلسلة ترشيد الصحوة
للدكتور يوسف القرضاوى
تصدرها مكتبة وهبة تباعاً

● صدر منها

١ - الدين فى عصر العلم

٢ - الإسلام والفن

٣ - النقاب للمرأة .. بين القول ببدعيته .. والقول بوجوبه

٤ - مركز المرأة فى الحياة الإسلامية

٥ - فتاوى المرأة المسلمة

٦ - جريمة الردة .. وعقوبة المرتد .. فى ضوء القرآن والسن

❊ ❊ ❊